تعريفُ التَّصَوُّف

دراسة وصفية

أ.د. لطف الله بن ملا عبدالعظيم خوجة

دار سلف للنشر والتوزيع

تعريفُ التَّصَوُّف

دار سلف للنشر والتوزيع

تعـريف التصـوف

تعـريف التصـوف

«دراسة وصفية»

أعده

أ.د. لطف اللّه بن ملا عبدالعظيم خوجة

الأستاذ بقسم العقيدة بجامعة أم القرى

التمهيد

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ السيد الكامل محمد بن عبد الله، وعلىٰ آله وصحبه، وبعد:

فهذا كتاب موضوع لبيانٍ مجملٍ لقضايا التصوف، صالحٍ لمدارسة ابتدائية، كاشفٍ عما تضمنه من: نسبة، ومورد، ونشأة، وتطور، ومصطلحات، ومصنفات، وشخصيات، وماهية، ومصدر، ومنهج، ومعتقد، وسلوك، وهدف، وطرق، وما عليه من حكم، وشيئا من واقعه المعاصر.

أسميته بـ: **"تعريف التصوف"**. أي: جعله معرّفا بما تميز به من خصائص عن غيره. يدرك به من مجمله وأصله ما يغني ويشفي من لم يكن من أهل الفن والاختصاص، فكان أن خرج مختصرا شاملا، جامعا مانعا، واستوجب الحال: وفرة من معلومات، مع تقليل من تحليلات، وخلو من استطراد واستفاضة، فليس يصدر عن استنباط واستنتاج، إنما ينطق بلسانهم؛ بلفظهم وحرفهم، ويعرب عن حقيقته بمعقولهم ومنطوقهم، ليرسم بها صورة صنعت بأيديهم، وتقديمها بحسب ما نزل بخيالهم؛ ظنيها ويقينيها، فنحن إنما نؤدي ما لديهم، ولا نتكلف شيئا مما لدينا،

بـل علـىٰ أسـاس قولـه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦]، فما أنت بملوم علىٰ شهادة منهم.

وقد جاء في عشرة محاور:

- أولا: النسبة.
- ثانيا: المورد.
- ثالثا: النشأة.
- رابعا: المصطلحات والمصنفات والشخصيات.
- خامسا: الحقيقة.
- سادسا: السلوك.
- سابعا: الهدف.
- ثامنا: الطرق.
- تاسعا: المعاصر.
- عاشرا: الموقف.

ولعله أن يكون قد أتىٰ علىٰ ما ينبغي ويحتاج إليه مثل هذه المقدمة والمدخل بعون الله وتوفيقه.

أولاً: النسبة

من جهة اللغة:

عامة المتصوفة - وغيرهم - يرجعون به إلىٰ الصوف، فيكون مشتقا منه، كالسراج والسهروردي.[١]

وآخرون منعوا من اشتقاقه:

❁ فإما جعلوه لقبا مجردا جامدا، وهذا قول القشيري والهجويري، وهو قول يوسف زيدان من المعاصرين.[٢] يؤيده قول أحمد المقرئ في "المصباح المنير": "تصوف الرجل، وهو صوفي، من قوم صوفية، كلمة مولدة".[٣]

❁ أو عادوا به إلىٰ أصل يوناني هو "سوف" بمعنىٰ: الحكمة. ومنه "فيلاسوف" بمعنىٰ: محب الحكمة، وهو قول أبي الريحان البيروني.[٤]

---

(١) اللمع ٤٠-٤١، عوارف المعارف ص٨٣/ ٥ ملحق بالإحياء.

(٢) الرسالة ٢/ ٥٥٠-٥٥١، كشف المحجوب ١/ ٢٣٠، ٢٣١، عبدالقادر الجيلاني باز الله الأشهب ص١٥.

(٣) المصباح المنير له ص١٣٤.

(٤) تحقيق ما للهند ص٢٧، وجمع من الباحثين العرب والمستشرقين: فون هامر، محمد لطفي جمعة. التصوف المنشأ والمصادر ص٣٣، =

من جهة الاصطلاح: فيه أقوال عدة، بلغت سبعة:

❁ فمـنهم الـذي نسـبه إلـىٰ الصُّـفَّة، التـي كانـت علـىٰ عهـد النبي ﷺ في مسجده، يأوي إليه المعدم الفقير، وهذا قول أبي عبد الرحمن السلمي، وله فيه كتاب.(١)

اعترض عليه: بأن ذلك العهد لم يكن فيه تصوف. وبـأن هـؤلاء لـم يلزمـوا مكـانهم أبـدا إلا للحاجـة، فلـيس لهـم وصـفا مؤبـدا. والنسبة إليها: صُفّي، لا صوفي.

❁ ومنهم الذي نسبه إلىٰ الصفاء، وهو قول جمهورهم، حـرره نيكلسون.(٢)

رُدّ بأن النسبة حينئذ: صفوي، لا صوفي. فهو إن قبل معنىٰ، فغيـر مقبول لغة.

❁ ومنهم من قال: من الصف الأول. فهم بين يـدي الله تعـالىٰ كذلك، نقله الكلاباذي والسهروردي.(٣)

ولو كان كذلك لقيل في النسبة: صَفّي. فهو غير صالح لغة.

= قضـية التصـوف لعبـد الحلـيم محمـود ٢٩-٣٢، الأعمـال الكاملـة لـه ٨/ ١٥٣ أبحاث في التصوف.

(١) تسعة كتب في أصول الزهد والتصوف ص٣٦٥.

(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص٦٦ .

(٣) التعرف ص٢٦-٢٧، العوارف، ملحق بالإحياء ٥/ ٨٤.

❁ ومنهم من نسبهم إلىٰ: الصوف. جلد الغنم. وهذا رأي عامتهم، ونقله كثير كالطوسي والسهروردي، وإليه يميل ابن تيمية، وبه يقول ابن خلدون.(١)

وقد رده بعض منهم كالقشيري والهجويري، بأنهم: "لم يختصوا بلبسه، وأنه لا يشهد له في العربية قياس ولا اشتقاق، وأن الأظهر فيه أنه كاللقب".(٢)

وابن تيمية يذكر هذا، فيقول: "وليس طريقهم مقيدا بلبس الصوف، ولا هم أوجبوا ذلك، ولا علقوا الأمر به، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال".(٣)

ومن تأمل حالهم لم ير فيهم عناية بلبس الصوف إلىٰ اليوم، ولو لبسوه فلا يشترطونه للطريقة، فهم فيه كسائر الناس.

❁ كذلك نسبوا إلىٰ: صوفة، قوم في الجاهلية، انقطعوا إلىٰ الله، وقطنوا الكعبة، يقال لهم: صوفة. فمن تشبه بهم منهم فهو صوفي، ذكره ابن الجوزي وابن القيسراني.(٤)

---

(١) اللمع ص ٤١، العوارف، ملحق بالإحياء ٥/ ٨٣، الفتاوىٰ ١١/ ١٩٥، المقدمة ص٤٦٧.

(٢) الرسالة ٢/ ٥٥٠-٥٥١، كشف المحجوب ١/ ٢٣٠ ، ٢٣١.

(٣) الفتاوىٰ ١٠/ ١٦.

(٤) تلبيس إبليس ص١٦١، صفوة التصوف ص١٥٤.

ولا يذكر المتصوفة هذه النسبة في كتبهم، فلا تصح النسبة إلىٰ ما لم ينتسبوا إليه.

❁ كما قيل: هو صوفة القفا. شعيرات في مؤخرة الرأس رقيقة مهملة.

وهذه أيضا لا تذكر.

❁ وقد نحا الكلاباذي والسهروردي إلىٰ تصحيح النسبة إلىٰ ما ذكر من: صُفَّة، وصف أول، وصفاء، من طريق المعنىٰ، ولو لم يستقم من طريق اللفظ. فتكون لهم كل تلك الأحوال.[١] وابن تيمية يخرج هذا علىٰ طرائق الاشتقاق: الأصغر، والأوسط، والأكبر.[٢]

❁ أما البيروني فقد ذكر: أنها نسبة إلىٰ: "سوف" كلمة يونانية بمعنىٰ: الحكمة.[٣] وله ما يؤيده:

○ من حيث النطق، والاختلاف بين السين والصاد جائز لغة، وفي القرآن: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾ [الفاتحة:٦]، وفي قراءة صحيحة: ﴿اهدنا السراط﴾.

---

(١) التعرف ص٢٧-٣٧، العوارف ٥/ ٨٤.

(٢) الفتاوىٰ ١٠/ ٣٦٩.

(٣) تحقيق ما للهند ص٢٧ وغيره.

○ والمعنىٰ مقارب إن لم يكن موافقا؛ ما بين الحكمة (=الفلسفة) والتصوف. فالأول: التشبه بالإله علىٰ قدر الطاقة. والثاني: التخلق بأخلاق الله. عرفهما كذلك: الجرجاني، والنوري، والغزالي، وابن عربي، والجيلي.(١)

○ ثم التوافق الكبير بين المعتقدات الفلسفية والصوفية، مما حدا بالمتصوفة لإظهار إعجابهم بالفلاسفة، وثناء هؤلاء عليهم كذلك، بل وجد فيهم من جمع بين التصوف والفلسفة، كما هو ظاهر في تراجمهم، وكتبهم، كـ: ذي النون المصري، والغزالي، والسهروردي المقتول، وابن عربي، والجيلي، والدباغ.

○ وقد ذكر الباحثون: أن جمعا من فلاسفة الهند كانت لهم ألقاب كـ: "تيوصوفية"؛ بمعنىٰ: الحكماء العراة. و"جيمنوصوفية"؛ بمعنىٰ: الحكماء الإلهيون.(٢)

(١) التعريفات ص٧٣، عبد الحليم محمود وقضية التصوف، المدرسة الشاذلية ص٤٢٦، الإحياء ٤/ ٣٢٤، الفتوحات ٢/ ٢٦٦، الإنسان الكامل ٢/ ١٩.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي ٣/ ٤٢.

أسماء الـمتصوفة:

- صوفية: وهو الأول، والأشهر، والأعم. وعليه اتفاقهم.
- شكفتية، والشكفت فارسية بمعنىٰ: الكهف.
- جوعية، وهي تسمية أهل الشام لهم.
- الفقراء، وهو اسم شائع كذلك.
- ملامتيـة، وهـم طائفـة مـنهم بـالغوا في الإخـلاص بسـتر الأعمال، ولو بقبائح الفعال.
- المجاذيب، والدراويش.[١]

(١) انظـر: التعـرف ص٢٨، والعـوارف ٥/ ٨٥،٨٩، معجـم مصـطلحات الصوفية ص١٦٨، التصوف في الإسلام ص٢٥.

ثانيا: المورد

مورد التصوف: الثقافات القديمة. والشاهد على ذلك: ما لوحظ من تطابق كلي ومفصل بينهما. وإليك التوضيح بالأدلة الثابتة، مما حكي من معتقدات الهند، والفرس، واليونان:

المورد الهندي: تغذى منه التصوف من طريقين: الاحتكاك المباشر، والترجمة.

أولا: الاحتكاك المباشر تجلى في وسائل عدة، هي:

❁ بالفتوحات التي امتدت - منذ القرن الأول - في خراسان والهند حتى الصين، وبالقطع فإن المسلمين اطلعوا على ثقافتهم وأديانهم، فمنهم الذي تأثر بها؛ لشبه بينها وبين الإسلام، في: الآداب، والأخلاق، ونوع من الزهد.[1]

❁ و"السمنية" وهي من طوائف الهند، كانت مزدهرة في: العراق، وخراسان، وفارس، والموصل إلى حدود الشام،[2] فهذا توغل في بلاد الإسلام حتى العرب.

❁ والبوذية في فارس الشرقية، ولها صوامع في بلخ، التي صارت مركزا للتصوف لاحقا.[3]

---

(١) تحقيق ما للهند ص١٩، ضحى الإسلام ١/ ٢٢٩، نشأة الفكر الفلسفي ٣/ ٥٥، التصوف المنشأ والمصادر ص١٢٨.

(٢) تحقيق ما للهند ص١١٩.

(٣) الصوفية في الإسلام ص ٢٧، نشأة الفكر الفلسفي ٣/ ٤٧.

❁ وقد أسكن أبو موسىٰ الأشعري طوائف من الزط من أهل السند بالبصرة.(١)

❁ ويذكر أن آسوكا -وقد حكم الهند قديما- تبنىٰ البوذية، وأرسل بعوثا للتبشير إلىٰ: كشمير، وسيلان، وفارس، حتىٰ الإسكندرية واليونان.(٢)

○ وذكر المستشرقون أن رهبان الهند وصلوا في سياحاتهم إلىٰ الشام في العهد الأموي.(٣)

ثانيا: الترجمة. وقد كانت:

❁ بأمر يحيىٰ بن خالد البرمكي، الذي أرسل رجلا يأتيه بكتب الهند في: الطب، والدين، والحكمة. وقبله يذكر مثله عن خالد بن يزيد بن معاوية.(٤)

❁ وقد عرف عن ابن المقفع ترجمته لكتب هندية، مثل: "كليلة ودمنة"، عن اللغة الفهلوية إلىٰ العربية، وقد نقل في عهد أنوشروان من الهندية إلىٰ الفهلوية، وعثر علىٰ أصول له باللغة السنسكريتية.(٥)

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص٣٦٨.
(٢) أديان الهند الكبرىٰ ص ١٨٠-١٨٣.
(٣) نشأة الفكر الفلسفي ٣/ ٥٣-٥٤.
(٤) الفهرست ص٤٠٠، ٤٧٤، ٥٣٣، نشأة الفكر الفلسفي ٣/ ٥٢.
(٥) الصوفية في الإسلام ص٢٨، ظهر الإسلام ٤/ ١٥٦.

بعض من أبرز المعتقدات الهندية المنتقلة إلىٰ صوفية الإسلام:

❁ **الفناء**، يمثل الفناء حقيقة التصوف، بإقرار المحققين من المتصوفة، كـ: الطوسي، الهجويري، والشاذلي، والتفتازاني.[١] ويعد البسطامي ت٢٦١هـ أول صوفي يتكلم بالفناء.[٢] فالفناء من جملة اعتقاداتهم، وهي عند البوذية "النرفانا".[٣] وعند الهندوس "الانطلاق".

فمن نصوصهم في هذا قول البيروني: "وإلىٰ طريق باتنجل ذهبت الصوفية في الاشتغال بالحق، فقالوا: "ما دمت تشير، فلست بموحد، حتىٰ يستولي الحق علىٰ إشارتك، بإفنائها عنك، فلا يبقىٰ مشير ولا إشارة...

وكقول أبي بكر الشبلي: اخلع الكل تصل إلينا بالكلية، فتكون ولا تكون، إخبارك عنا، فعلك فعلنا. وكجواب أبي يزيد البسطامي وقد سئل: بم نلت ما نلت؟: إني انسلخت من نفسي، كما تنسلخ الحية من جلدها، ثم نظرت في ذاتي، فإذا أنا هو".[٤]

---

(١) اللمع ص٤٧، كشف المحجوب ١/ ٣٢١، قوانين حكمة الإشراق ص٦٠، الموسوعة الفلسفية العربية ١/ ٢٥٩.

(٢) التصوف في الإسلام ص٦٥، وظهر الإسلام ٤/ ١٥٦.

(٣) ظهر الإسلام ٤/ ١٥٥.

(٤) تحقيق ما للهند ص٥٦-٦٢.

❁ **الوحدة والحلول والاتحاد**، قال البيروني: "وكان فيهم من يرىٰ الأشياء شيئا واحدا، ثم من قائل في ذلك بالكمون، ومن قائل بالقوة. وأن الإنسان مثلا لم يتفضل عن الحجر والجماد إلا بالقرب من العلة الأولىٰ بالرتبة، وإلا فهو هو".

قال: "وكان فيهم من يقول: إن المنصرف بكليته إلىٰ العلة الأولىٰ متشبها بها علىٰ غاية إمكانه، يتحد بها عند ترك الوسائط وخلع العلائق والعوائق، وهذه آراء يذهب إليها الصوفية لتشابه الموضوع".[١]

المورد الفارسي: يغلب علىٰ الظن: أن الجهد الفارسي كان له دور الوسيط الناقل للثقافات الهندية واليونانية إلىٰ الإسلام. ومدينة بلخ كانت في فارس، وهي مركز البوذية، ثم صارت بعد مركزا للتصوف.

فالدور الفارسي متمثل في طرق، هي:

الأول: النقلة.

كثير من المتصوفة الأوائل هم من الفرس، كـ: البسطامي، والنوري، والشبلي، والجنيد.[٢]

---

(١) تحقيق ما للهند ص٢٧-٢٨.

(٢) طبقات الصوفية ص٢٠٧.

وللمتصوفة إعجاب كبير بالفرس كابن عربي.[١] وبعضهم يجزم بأن التصوف جاء من قبلهم.[٢] فهؤلاء كان لهم دون في نقل التراث الصوفي الفارسي إلىٰ العرب.

الثاني: الترجمة.

كانت الترجمة عاملا رئيسا مهما في النقل إلىٰ العربية والإسلامية، ومن ثم تلقي المتصوفة لها:

❁ فالبرمكي يحيىٰ بن خالد، وهو من الفرس، كان قد جلب بأمره عقائد الهند، وكانت للبرامكة رعاية وعناية بالثقافة الفارسية، واليونانية، والهندية.[٣]

❁ وابن المقفع ترجم كتاب "كليلة ودمنة" إلىٰ العربية من الفهلوية، بعدما ترجم من الهندية السنسكريتية، كما ترجم كتبا في المنطق اليوناني.[٤]

❁ وابن النديم عقد فصلا لأسماء النقلة من الفارسي إلىٰ العربي.[٥]

---

(١) ترجمان الأشواق ص٨٢.
(٢) الصوفية الوجه الآخر ص٢٩.
(٣) ضحىٰ الإسلام ١/ ١٩٤.
(٤) ضحىٰ الإسلام ١/ ٢٦٤، ٢٧١.
(٥) الفهرست ص٣٩٩.

❁ وكتـاب "تاسـوعات" أفلـوطين، وهـو يونـاني، امتـزج بالمذاهب الإيرانية قبل أن يصل إلىٰ المسلمين، كذا عن شيدر في بحثه "الإنسان الكامل".(١)

الثالث: التشيع.

❁ مما قيل: إن التشيع والتصوف وجهان لعملة واحدة، هو: إحياء دين الفرس. وقد يصدق هذا مع التشابه الكبير بينهما في أصول العقائد في: الله، والكون، والآخرة، ومعنىٰ الدين.

فكلاهما فيه: الغلو في الأئمة؛ بنسبة أوصاف الربوبية إليهم كاملة، وما يتبعها من شرك في الربوبية والألوهية، وانتساب أئمتهم لآل البيت.(٢)

❁ "رسائل إخوان الصفا" تجمع بين التصوف والتشيع، فكاتبوها شيعة إسماعيلية.

وقد جاء في مقدمتها قولهم: "وهي اثنتان وخمسون رسالة، في: فنون العلم، وغرائب الحكم، وطرائف الآداب، وحقائق المعاني. عن كلام الخلصاء الصوفية".(٣)

---

(١) ص٤٥.

(٢) الصلة بين التصوف والتشيع، التصوف المنشأ والمصادر ص١٣٧، نشأة الفكر الفلسفي٣/ ٤٦، ٩١-١٠٢، قطر الولي ص٧٨-١١٧.

(٣) ١/ ٢١.

❁ ومن مصادر الغزالي في التصوف تلك الرسائل الآنفة.[١]

المورد اليوناني: هذا المورد غير منطقي ولا معقول؛ إذ الفلسفة علمه الذي اختص به، وهو علم يقوم على العقل المجرد، بينما التصوف لا يؤمن بالعقل، بل بما وراءه، فكيف يكون إذن مصدرا؟!

في حقيقة الأمر: أنه لا تعارض بينهما لأمرين هما:

❁ أن فلاسفة اليونان كان لهم استمداد من حكماء الهند.

❁ والاتفاق بين التصوف والفلسفة من حيث اللغة، فكلاهما بمعنى الحكمة، ومن حيث المعنى، فكلاهما مقصوده التشبه أو التخلق بأخلاق الإله تعالى، وقد تقدم.

مما يدل على أن التعارض ظاهر لا باطن له، فلم يخل المتصوف من العقل تماما، ولم يتحل به الفيلسوف على كل حال، ولو ادعاه.

ولنا على إثبات العلاقة أدلة عدة:

أولًا: استمداد الفلاسفة من الهند.

❁ يقول البيروني: "إن اليونانيين أيام الجاهلية -قبل ظهور النصرانية- كانوا على مثل ما عليه الهند من العقيدة، خاصهم في النظر قريب من خاصهم، وعامهم في عبادة الأصنام كعامهم.

---

(١) ابن تيمية والتصوف ص٢٨٣.

ولهـذا أستشـهد بكـلام بعضـهم علىٰ بعـض؛ بسـبب هـذا الاتفـاق وتقارب الأمرين".[١]

❁ وفي كتابات ديونيسيوس القاضي الأريوبـاغي مـن فلاسـفة أثينـا: تصـوف مسـيحي. وكـان معروفـا مـن دجلـة إلـىٰ الأطلسـي، والأفكار الصوفية الإغريقيـة كانـت منتشـرة في غربـي آسـيا ومصـر. كما يقول نيكلسون في كتابه: "الصوفية في الإسلام".[٢]

ثانيا: اعتناق الـمتصوفة للفلسفة.

❁ ذو النـون المصـري وهـو مـن الشخصـيات المتقدمـة في التصوف، وصف بأنه واضع أسس التصوف، كان له علم بالحكمـة اليونانية، الشـائعة يومئـذ في بلـده مصـر، وكثيـرا مـا كـان يـأوي إلـىٰ البرابي بأخميم مصر، وهي بيوت الحكمة، ينظـر ويقـرأ في نقوشـها وآثارها.[٣]

❁ المشهور عن ابن سينا أنه فيلسـوف، لكـن الثابـت أيضـا أنـه متصوف كما يدل عليه كتابه "الإشارات".

❁ والسهروردي المقتول يحيىٰ بن حبش يقـول: "إن الصـوفي غيـر المتفلسـف هـو صـوفي نـاقص، وكـذلك الفيلسـوف غيـر المتصوف هو فيلسوف ناقص".[٤]

---

(١) تحقيق ما للهند ص٢١.

(٢) ص٢٢-٢٤.

(٣) الصوفية في الإسلام ٢٤-٢٥، والتصوف المنشأ والمصادر ص١٢٩.

(٤) الموسوعة الفلسفية العربية ٢/ ١٢٩، نقلا عن المطارحات له.

وهو من الفلاسفة المشائين من أتباع أرسطو مع تأثر بالأفلاطونية الحديثة، ويفسر كل شيء في الوجود المادي والعقل علىٰ أساس الإشراق.(١)

❁ وأبو حامد الغزالي كان فيلسوفا، ثم تصوف وبقيت عليه بقية من فلسفة، لم يقدر علىٰ التخلص منها، ساير بها تصوفه دون ارتياب، وقد قال ابن العربي فيه: "شيخنا أبا حامد بلع الفلاسفة، وأراد أن يتقيأهم فما استطاع".(٢)

❁ وابن عربي ينهل من فلسفة أفلوطين والفلسفات الغنوصية. يقول النشار: "مما لا شك فيه أننا نجد في كتابات بعض الصوفية في القرنين الثالث والرابع الهجريين، بعض الآثار الأفلاطونية الحديثة".(٣)

❁ وفي قصة "حي بن يقظان" لابن طفيل تجسيد قصصي لهذه العلاقة، وهو الذي يثني علىٰ أئمة التصوف، ويستند إلىٰ أقوالهم في تقرير مسائل قصته، وأهمها: إمكانية الاستغناء عن الرسل للتوصل إلىٰ حقيقة الإله والكون والمآل، من طريق التأمل والعقل، وإجهاد البدن، وملازمة الذكر، والتشبه بالإله. كل تلك يحيكها وينسبها للفلسفة، وهي من صميم التصوف.(٤)

---

(١) النجوم الزاهرة ٦/ ١٠٤، وفيات الأعيان ٦/ ٢٦٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٧.

(٣) نشأة الفكر الفلسفي ٣/ ٣١.

(٤) انظر كذلك: التصوف في الإسلام ص٨٠.

ثالثا: إعجاب المتصوفة بالفلاسفة.

❁ الجيلي يقول: "ولقد اجتمعت بأفلاطون، الذي يعدونه أهل الظاهر كافرا، فرأيته وقد ملأ العالم الغيبي نورا وبهجة، ورأيت له مكانة لم أرها إلا لآحاد من الأولياء، فقلت له: من أنت؟ قال: قطب الزمان، وواحد الأوان، ولكم رأينا من عجائب وغرائب مثل هذا، ليس من شرطها أن تفشىٰ".(١)

وزعم أن أرسطو لزم خدمة الخضر، واستفاد منه علوما جمة، وكان من تلامذته.(٢)

❁ لسان الدين ابن الخطيب يلقب أفلاطون بمعلم الخير، وأرسطو بالحكيم المتأله، وسقراط وهرمس من أهل الأنوار.(٣)

❁ يقول الشعراني: "وكان سيدي أفضل الدين رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: كثير من كلام الصوفية لا يتمشىٰ ظاهره إلا علىٰ قواعد المعتزلة والفلاسفة، فالعاقل لايبادر إلىٰ الإنكار بمجرد عزو ذلك الكلام إليهم، بل ينظر ويتأمل في أدلتهم التي استندوا إليها، فما كل ما قاله الفلاسفة والمعتزلة في كتبهم يكون باطلا".(٤)

---

(١) الإنسان الكامل للجيلي ٢/ ٥٢

(٢) الإنسان الكامل ٢/ ١١٧.

(٣) روضة التعريف بالحب الشريف ٢/ ٥٦٠-٥٦٤، التصوف المنشأ والمصادر ص١٣٢.

(٤) الطبقات الكبرىٰ ١/ ١١.

❁ يقول المقبلي: "وإذا حققت وأنصفت وعندك توفيق، وللكتاب والسنة عندك قيمة، ونظرت بعدها في كتب الفلاسفة والمنجمين والباطنية وأهل الخواص والسحر بأنواعه، تجد ذرية بعضها من بعض، فإن أحببت كتابا ينوب عن الجميع فالفتوحات لابن عربي".[١]

وقد انتقلت الثقافة اليونانية بموروثها الديني عن طريقين: المدارس، والترجمة.

❁ فالمدارس اليونانية انتشرت في: مصر، والشام، والعراق، وخوزستان، في أديرة مسيحية بالشام، وفي مدرسة جنديسابور في خوزستان، وفي حران الصابئة في الجزيرة، وبمدرسة الصابئة ببغداد.[٢]

❁ والترجمة تمت عن أمر المأمون في نهاية الثاني وبداية الثالث، فقد أرسل يسأل ملوك الروم أن يبعثوا بما عندهم من كتب الحكمة، واتخذ مترجمين يتقنون العربية واليونانية لهذا الغرض، فمما ترجم كتب أرسطو، كذلك أفلوطين وله كتاب "التاسوعات" نقله إلىٰ العربية عبد المسيح بن ناعمة الحمصي بعنوان: "أثولوجيا". بمعنىٰ: الربوبية.

---

(١) العلم الشامخ ص٥٥٢.

(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص١٤-١٦.

وأصلحه لأحمد بن المعتصم بالله أبو أحمد يوسف بن يعقوب الكندي، وانتفع به ابن سينا، وشرحه وهو يعتقد خطأ أنه لأرسطو.[١] فجل الثقافة اليونانية الأفلاطونية انتقلت عن طريق الترجمة.[٢]

أبرز المعتقدات اليونانية الفلسفية:

❁ التشبه بالإله:

قال أرسطو: "إن النفوس الإنسانية إذا استكملت قوتي العلم والعمل، تشبهت بالإله سبحانه وتعالىٰ، ووصلت إلىٰ كمالها، وإنما التشبه بقدر الطاقة يكون إما بحسب الاستطاعة، وإما بحسب الاجتهاد، فإذا فارق البدن اتصل بالروحانيين، وانخرط في سلك الملائكة المقربين".[٣]

وقال البيروني: "وفي كتاب "كيتا" وهو جزء من كتاب "بهارت" فيما جرىٰ بين باسديو وبين آرجن: إني أنا الكل من غير مبدأ بولادة أو منتهىٰ بوفاة، لا أقصد بفعلي مكافأة، ولا أختص بطبقة دون أخرىٰ لصداقة أو عداوة، قد أعطيت كلا من خلقي حاجته في فعله، فمن عرفني بهذه الصفة، وتشبه بي في إبعاد الطمع عن العمل، انحل وثاقه وسهل خلاصه وعتاقه.

---

(١) ظهر الإسلام ٤/ ١٥٦.
(٢) ضحىٰ الإسلام ١/ ٢٥٣.
(٣) الملل والنحل ص٣٨٩.

وهذا كما قيل في حد الفلسفة: إنها التقيّل بالله ما أمكن". والتقيل: التشبه.(١)

❁ الفناء:

في "التاسوعات" لأفلوطين: "إني ربما خلوت بنفسي وخلعت بدني جانبا، وصرت كأني جوهر متجرد بلا بدن، فأكون داخلا في ذاتي راجعا إليها، خارجا من سائر الأشياء، فأكون العلم والعالم والمعلوم جميعا، فأرىٰ في ذاتي من الحسن والبهاء والضياء ما أبقىٰ له متعجبا بهتا".(٢)

وفي الأفلاطونية: "علىٰ السالك أن يطير بجناح العشق نحو الله تعالىٰ، ويحرر نفسه من قيد وجوده الذي ليس إلا مظهرا فحسب، وينمحي ويفنىٰ في ذات الله؛ أي: الموجود الحقيقي".(٣)

وقد حكي أن أفلوطين هذا وصل إلىٰ حالة الفناء بضع مرات، وتلميذه فرفوريوس مرة واحدة.(٤)

---

(١) تحقيق ما للهند ص٢٤، ولسان العرب ١١/ ٣٧٥، مقاييس اللغة ٥/ ٤٤.
(٢) ظهر الإسلام ٤/ ١٥٦، روضة التعريف بالحب الشريف ص٥٦١، الموسوعة الفلسفية ٢/ ١١٨، التصوف المنشأ والمصادر ص١٣٢.
(٣) التصوف المنشأ والمصادر ص١٢٦.
(٤) ضحىٰ الإسلام ١/ ٢٥٩، التصوف في الإسلام ص٣٥، التصوف المنشأ والمصادر ص١٢٤، قطر الولي ص٧٧.

❁ الاتحاد والحلول ووحدة الوجود:

قال البيروني: "قال سقراط: النفس مشابهة جدا للجوهر الإلهي الذي لا يموت ولا ينحل، والمعقول الواحد الثابت علىٰ الأزل والجسد علىٰ خلافها، فإذا اجتمعا أمرت الطبيعة البدن أن يخدم، والنفس أن ترأس، فإذا افترقا ذهبت النفس إلىٰ غير مكان الجسد، وسعدت بما يشبهها".(١)

وقال: "إن قدماء اليونانيين قبل نجوم الحكمة فيهم بالسبعة المسمين أساطين الحكمة... كانوا علىٰ مثل مقالة الهند، وكان فيهم من يرىٰ أن الأشياء كلها شيء واحد، ثم من قائل في ذلك بالكمون، ومن قائل بالقوة".(٢)

قوله: "الأشياء كلها شيء واحد"، هو وحدة الوجود.

(١) تحقيق ما للهند ٦٠-٦١.

(٢) تحقيق ما للهند ص٢٧.

ثالثا: النشأة

تاريخ النشأة:

❁ قال القشيري: "واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة".[1]

❁ وقال السهروردي: "وقيل: لم يعرف هذا الاسم إلىٰ المائتين من الهجرة العربية".[2] فالاسم هي الكلمة الاصطلاحية، التي دلت علىٰ طائفة تميزت بطريقتها ومشايخها، هي: "التصوف". يقول محقق كتاب "التعرف لمذهب أهل التصوف" محمود النواوي: "فأما كلمة "التصوف": فقد أجمع الكاتبون في هذا المقام علىٰ أنها من الكلمات الاصطلاحية، التي طرأت في أواخر القرن الثاني للهجرة".[3]

❁ **قال ابن الجوزي**: "هذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين".[4]

---

(١) الرسالة ١/ ٥٣.

(٢) عوارف المعارف، ملحق بالإحياء ٥/ ٨٥.

(٣) مقدمة تحقيق التعرف ص٤.

(٤) تلبيس إبليس ص٤١٥.

❁ **وقال ابن تيمية**: "لكن المتكلمة والصوفية فيهم ممن له علم وإيمان طوائف كثيرون، بل في من يعد من الصوفية، مثل: الفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، وإبراهيم بن أدهم، ومعروف الكرخي، وأمثالهم من هو من خيار المسلمين وساداتهم عند المسلمين، وفي عصرهم حدث اسم "الصوفية"، وظهر الكلام أيضا، وكلام السلف والأئمة في ذم البدع الكلامية في العلم، والبدع المحدثة في طريقة الزهد والعبادة مشهور كثير مستفيض".[1] وهؤلاء عاشوا في نهاية القرن الثاني، وماتوا فيه.

فأما من حيث المدلول العام، الذي لا يختص بفرقة، بل بأفراد، فقد أطلقت قبل ذلك، كما يقوله النشار: "إن الكلمة (الصوفية) أطلقت أول الأمر - فيما يرجح - كمصطلح على طوائف ثلاث:

❁ **الطائفة الأولى**: هي طائفة أهل الصنعة، والصنعة هي معرفة الكيمياء والسحر والطلاسم، ويمثل هذه الطائفة: جابر بن حيان ت٢٠٠هـ.

❁ **الطائفة الثانية**: هي طائفة الزنادقة ... [ومنهم عبدك الصوفي ت٢٠١هـ].[2]

---

(١) الأصفهانية ٦٢٩-٦٣٠.

(٢) زيادة مني.

❁ **الطائفة الثالثة**: هي طائفة سنية، اتخذت الصوف علما ووسما لها... ويمثلها أبو هاشم الصوفي".[١]

أما الثالثة فغلط على المتصوفة؛ لأن أبا هاشم عثمان بن شريك الكوفي توفي سنة ١٥٠هـ؛ أي: قبل ظهور المتصوفة، كما تقدم بيانه آنفا، وقد قيل: إنه أول من أطلق عليه: صوفي. كما قال عنه الجامي في "نفحات الأنس".[٢] لم يكن يمثل إلا نفسه، لم يمثل طائفة، وليس له علاقة بالمتصوفة، ولا يترجمون له في كتبهم، لم يترجم له السلمي في طبقاته، ولا أبو نعيم، ولا الشعراني، وإطلاق صوفي عليه جاء من لباسه للصوف، قيل: كان يلبس لباسا طويلا من الصوف كفعل الرهبان، وكان حلوليا اتحاديا، وكان باطنيا دهريا، مراده من وضع هذه المذاهب: أن يثير الاضطراب في الإسلام.[٣]

(١) نشأة الفكر الفلسفي له ٣/ ٢٦٩-٢٧٩.

(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص٣، نشأة الفكر الفلسفي ٣/ ٢٨٧، التصوف منشؤه ومصطلحاته ص٢١.

(٣) التصوف المنشأ والمصادر ص١٤٤-١٤٥، عن كتاب طرائق الحقائق ١/ ١٠١.

موضع النشأة:

ذهب بعضهم إلىٰ: أنه بدأ في الكوفة. واستدل بكون أوائل المتصوفة كانوا منها، كـ: جابر بن حيان، وأبي هاشم، وعبدك. وكانت الكوفة تعج بالثقافات المتباينة الواردة، فيها سكن اليهود والنصارىٰ، وأحاط بها الصابئة، وكان فيها نحل المجوس: الديصانية، والمانوية، والمزدكية، والزرادشتية. وبالقرب منها: المدائن موطن الشيعة الغالية.(١)

وذهب ابن تيمية إلىٰ: أن نشأته في البصرة. بناء علىٰ أن التصوف نوع من الزهد الغالي المبتدع، لا أنه فكر فلسفي؛ لذا فإنه يقول: " فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بنىٰ دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار، ولذلك يقال: فقه كوفي، وعبادة بصرية".(٢)

وكلا المذهبين فيه نظر؛ فإن بداية التصوف الحقيقية، إنما ينبغي أن تؤرخ من حين تشكيل الطائفة التي تميزت بـ: طريقتها، ومشايخها، وعقائدها. لا بإرهاصاتها ومبشراتها.

---

(١) الصلة بين التصوف والتشيع ص٢٦٨، نشأة الفكر الفلسفي ٣/ ٢٦٩، ٢٧٩.

(٢) الفتاوىٰ ١١/ ٦-٧.

فمن ذهب إلىٰ أنه بدأ في الكوفة، بناء علىٰ وجود ابن حيان بها، فذلك إرهاص بداية لا بداية حقيقية؛ حيث إنه كان يحمل عقائد تجسدت وظهرت فيما بعد في المتصوفة، ولم يشكل فرقة ولا كان شيخا للطريقة.

كذلك القول بنشأته في البصرة، إنما هو بناء علىٰ أن نبتة ومادة التصوف إنما اتكأت علىٰ طائفة الزهاد المبتدعة، وكان ظهورهم بالبصرة، فحين دخل التصوف بفكره وعقائده أرض الإسلام، وجد من هؤلاء مادة صالحة للتبسط والتربع، فاتخذها أرضا ومهادا.

فأما البداية الحقيقية للتصوف، في شكل: فرقة، وطريقة، ومشايخ، وعقائد، فإنه كان في نهاية القرن الثاني وبداية الثالث، ومكان بدايته يتبع مواطن أئمته الأول، الذين هم في الطبقة الأولىٰ، وقد عد منهم السلمي في طبقاته عشرين – وإن كان بعضهم ينازع في نسبته إلىٰ التصوف – متناثرين في: خراسان، العراق، والشام، ومصر. فالنشأة متزامنة في كل هذه البقاع، لم يختص مكان به دون غيره، وهذه نبذ عنهم، كما في الطبقة الأولىٰ من: "طبقات الصوفية" للسلمي:

❁ فأولهم زمنا شقيق بن إبراهيم البلخي، من أهل بلخ، حسن الكلام في التوكل، ويظن أنه أول من تكلم في علوم الأحوال بكور خراسان، وهو من مشاهير مشايخ خراسان، توفي سنة ١٩٤هـ.

فهذا بداية التصوف هنالك.

❁ ثم أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني، من أهل داريا، قرية من قرىٰ دمشق. توفي سنة ٢١٥هـ، فيكون شيخهم وأولهم في الشام.

❁ ثم معروف بن فيروز الكرخي، وهو أستاذ سري السقطي، وقبره ببغداد، توفي سنة ٢٠٠هـ، فهو من أول المشايخ في العراق: الكرخ، وبغداد.

❁ ثم الحارث بن أسد المحاسبي، من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر، وعلوم المعاملات والإشارات، وهو أستاذ البغداديين، توفي سنة ٢٤٣هـ، وهو من أهل البصرة، وأولهم هناك.

❁ ثم ذو النون ثوبان بن إبراهيم المصري أبو الفيض، كان أبوه نوبيا، عاش بمصر، وتوفي سنة ٢٤٥هـ. فهو الذي أنشأ التصوف بمصر. قال نيلكلسون: "والرجل الذي اضطلع بأكبر قسط في تطور هذا النوع من التصوف هو ذو النون المصري الذي وصف بأنه حكيم كيميائي، أو بأنه – بعبارة أخرىٰ – أحد أولئك الذين نهلوا من منهل الثقافة اليونانية".[1]

❁ ثم سري بن المغلَّس السقطي، هو أول من تكلم ببغداد في لسان التوحيد وحقائق الأحوال، وهو إمام البغداديين، وشيخهم في وقته، وإليه ينتهي أكثر الطبقة الثانية المذكورين في طبقات السلمي، توفي سنة ٢٥١هـ، فهذا منشأ التصوف في بغداد العراق.

---

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص١٦.

❁ ثم أبو يزيد طيفور بن عيسىٰ البسطامي، كان جده شروسان مجوسيا فأسلم، وهو من أهل بسطام، توفي سنة ٢٦١هـ، وقيل: ٢٤٣هـ، فهو من أوائلهم في خراسان.

وهكذا، فكل من بلدة وناحية، ومنهم الذي من دمشق كأحمد ابن أبي الحواري توفي سنة ٢٣٠هـ، ومنهم الذي من نيسابور وهو أحمد بن خضرويه، مشهور بالفتوة، توفي سنة ٢٤٠هـ، كذلك يحيىٰ ابن معاذ الرازي أقام في بلخ ونيسابور وتوفي سنة ٢٥٨هـ.

وهكذا هم في الأمصار كلها وجدوا، لم يتميز مصر بكونه بداية نشأتهم، إلا أن خراسان والعراق يمكن أن تكونا ناحية التصوف كثرة ووجودا، فهذا هو الأقرب للتحرير، ويقول نيلكسون: "وقد كان لمصر والشام الصدارة بين الأمم التي انتشرت فيها الحضارة اليونانية، وهما البلدان اللذان ظهر فيهما التصوف لأول مرة، بمعناه الدقيق وتطور كما أسلفنا".[1] يقصد بمعناه الدقيق: الاصطلاحي، الذي له كيان، وطريقة، ومشايخ.

فأما قول من قال: إنه بدأ منذ عهد الصحابة. وهو قول عامة المتصوفة كأبي عبد الرحمن السلمي؛ الذي عد أهل الصفة متصوفة، وكتب فيهم كتابا، ونسب التصوف إليهم، وفِعْل أبي نعيم في: "الحلية"، ومثله عبد الوهاب الشعراني في: "طبقاته الكبرىٰ"، وغيرهم، فهو مذهب ضعيف ليس عليه دليل:

---

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص١٦.

❁ فالصحابة لم يعرف فيهم هذا الاسم لا من قريب، ولا من بعيد.

❁ والمعاني الصوفية الأساسية، كـ: الفناء، والوجد، والذوق، والكشف، والأحوال، والمقامات، والإشارات.. إلخ، لا تعرف في كلمات الصحابة ولا أفعالهم.

❁ ومجرد التشابه في شيء من العبادة والزهد، لا يجعلهم منهم؛ لأن التشابه الجزئي واقع بين أهل الملل والنحل، ليس بين فرق الإسلام فحسب.

❁ والمحققون من المتصوفة يعلمون: أن التعريف الدقيق للتصوف، هو: الفناء. وهذا مصطلح لم يعرف لفظه ولا معناه - فضلا عن التخلق به- أحد من الصحابة، ولا التابعين، ولا تابعيهم.

سبب النشأة والانتشار:

سبب نشأة التصوف، فيه قدر من الغموض؛ لاختلاف تفسير التصوف في ذاته ما هو؟: سني، أم بدعي، أم فلسفي فوق ذلك؟

فالقول بسنيته هو رأي الصوفية قاطبة، فإنهم يعدونه لب الإسلام، وأصله، وحقيقته، وباطنه.

وما عند غيرهم من: فقهاء، ومحدثين، ومفسرين، ليس إلا قشره وظاهره، وثناء المتصوفة على "علم التصوف" وأهل التصوف معروف وفيه غلو ظاهر، وتفسيرهم لنشأته منسجم مع هذا الاعتقاد: فإنهم يرونه هو والإسلام شيئا واحدا.

وعليه: فقد بدأ مع الإسلام منذ عهد النبوة، وتمثلوا ظاهرا في أهل الصفة، وقد كتب في هذا أبو عبد الرحمن السلمي صاحب "الطبقات" كتابا ينصر هذا الرأي، ثم أتىٰ أبو نعيم في "الحلية" يترجم لأئمة التصوف فجعل الصحابة الكبار كالعشرة منهم وأوائلهم، ومثله فعل عبد الوهاب الشعراني في "طبقاته".

وعلىٰ هذا، فسبب النشأة: هو وجود الإسلام في ذاته، وهو البعثة المحمدية.

وإذا ما اعترض عليه: بعدم تسمي هؤلاء الصحابة بهذا الاسم كان جوابهم قول القشيري: إن اسم: "الصحابة" لا فضيلة فوقها، ثم يليه: "التابعون"، ثم يليه: "تابع التابعين"، أما من بعد هؤلاء فسموا بـ: "الزهاد والعباد".

ثم لما ظهرت البدع، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا، انفرد خواص أهل السنة، المراعون أنفاسهم مع الله تعالىٰ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم: "التصوف".[1]

وقريبا منه قاله السهروردي في "عوارفه".[2]

لكن هذا الرأي بجملته ساقط، لو ما ثبتت بدعية وفلسفية التصوف وأجنبيته أصالة!

---

(١) الرسالة ١/ ٥٣

(٢) ملحق بالإحياء ٥/ ٨٥.

وهناك رأي أراه ساقطا ابتداء، زعمه بعضهم: أن التصوف ثورة روحية علىٰ الجفاء الفقهي والكلامي. وهذا قاله بعض المتأخرين المعاصرين.[١] فإنه يرده الواقع: أن التصوف المنظم المرسوم من قبل المتصوفة، ظهر قبل تمكن علم الكلام، بل سابقه وزامنه؛ نهاية القرن الثاني وبداية الثالث، لما ترجمت كتب اليونان بأمر المأمون، ففي الوقت نفسه بزغ قرن التصوف والكلام معا.

والثورة الروحية إذا تمثلت في الزهد والتعبد البدعي، فإن له وجودا مزامنا لظهور المعتزلة في بداية القرن الثاني، حيث ظهر العُبَّاد، وبنيت لهم دور للعبادة.

والفقه ليس فيه جفاء ولا جمود، بل هو تصحيح للأفعال، والمتصوفة يختالون بنسبة كلمة للإمام مالك، ليس لها سند يصح عنه، ولم ترو في كتب المالكية، قوله: "من تفقه ولم يتصوف تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه تزندق، ومن تصوف وتفقه فقد تحقق".

وفي سياق هذا القول، يرىٰ السهروردي: أن إقبال الناس علىٰ زخرف الدنيا، وضعف العزائم أوجد طائفة انفردت بأعمال صالحة، وزهدوا في الدنيا، فاعتزلوا واتخذوا الزوايا أسوة بأهل الصفة، تاركين الأسباب، إلىٰ أن ظهر الاسم بينهم وتسموا به.[٢]

---

(١) ابن تيمية والتصوف ص٥، ١٨٧.

(٢) عوارف المعارف، ملحق بالإحياء ٥/ ٨٥.

يزعم هؤلاء: أن التصوف يمثل الزهد في الإسلام. وهذا رأي مشهور، عليه كثيرون، لكن يعكر عليه أمور:

❁ أقوال المحققين منهم. فإنهم يقرون بعدم اشتراط الزهد للتصوف، منهم: السهروردي نفسه، عبد الحليم محمود، سعاد الحكيم، رائد العشيرة المحمدية، كذلك نيكلسون وابن الجوزي (ستأتي مقالاتهم).

❁ المحققون منهم لا يفسرون التصوف به، بل بـ: الفناء، والخلق. (سيأتي)

❁ أحوالهم لا تشترط الزهد في الطريق، بل ولا المجاهدة والتقشف، فالنوري لايشترط إلا التخلق بأخلاق الله، ولم يختصوا بلبس الصوف -وهو شعار للزهد- كما ذكر القشيري، كذلك ليس في تراجمهم: أنهم اتخذوا الصوف شعارا.

❁ التاريخ يفيد: بأن تيار الزهد المشروع، وعليه عامة العلماء، وتيار الزهد البدعي، وعليه طائفة من العباد: كان موجودا قبل ظهور التصوف. فأي مبرر لظهور "التصوف" إذن، والخط المشروع للزهد حاضر قائم؟

وأما القول ببدعيته، وهذا رأي ابن تيمية، قال: "حدث اسم "الصوفية"، وظهر الكلام أيضا، وكلام السلف والأئمة في ذم البدع الكلامية في العلم والبدع المحدثة في طريقة الزهد والعبادة مشهور كثير مستفيض"[1]؛ فإنه يؤرخ التصوف من حين ظهور

---

(١) الأصفهانية ٦٢٩-٦٣٠.

طائفة الزهاد العباد، الذين ظهر في تعبدهم شيء من البدع لم تكن معروفة من قبل، مثل: العشق الإلهي، أو شدة الخوف، والصعق، والزهد بترك الدنيا بالكلية. وهذا بدأ في البصرة، وكان عبد الواحد ابن زيد منهم، وقد توفي ما بعد سنة ١٥٠هـ كما في "سير أعلام النبلاء"، وكان بعض أصحابه -كما ذكر ابن تيمية- بنوا دويرة للصوفية؛[1] أي: العباد، فذلك الوقت لم يكن ثمة طائفة تسمىٰ بهذا الاسم.

فعلىٰ هذا القول تكون النشأة فيما بعد المائة الأولىٰ في أواخر عهد تابع التابعين؛ انقضاء عهد الدولة الأموية، وبداية العباسية سنة ١٣٢هـ، حيث كثرت البدع العقائدية، ومنها بدعة الزهد والعبادة. فسبب النشأة هو: البدعة، والبعد عن السنة.

وأخيرا: علىٰ القول بفلسفيته: فإن سبب نشأته هو ما تقدم من استمداده من الثقافات القديمة: الهندية، والفارسية، واليونانية. وذلك تم من طرق، سيقت سابقا:

❁ الاحتكاك المباشر بالفتوحات، وتمدد تلك الثقافات في البلاد الإسلامية.

❁ والترجمة كالتي كانت عن أمر يحيىٰ بن خالد البرمكي لكتب الهند، وأكبر من ذلك التي كانت عن أمر المأمون لكتب اليونان، في نهاية القرن الثاني وبداية الثالث.

---

(١) الفتاوىٰ ١١/ ٦.

❁ والمدارس الفلسفية اليونانية التي انتشرت في الأمصار: خوزستان، والعراق، والشام، ومصر.

ولعل مما يؤيد هذا: أن التصوف لم يبدأ في الظهور بهذا الاسم إلا بعد هذه الترجمات، فإن البرمكي كان بعد ١٥٠هـ، وحينها سمي: جابر بن حيان، وعبدك، وأبو هاشم الصوفي به، ثم بعد ترجمة المأمون تشكل التصوف: اسما، وفرقة، وطريقة، وأعلاما.

عن الانتشار: فلا ريب أن التصوف لقي رواجا وانتشارا إلىٰ اليوم، حتىٰ كانوا سوادا في بلاد كثيرة مسلمة، بل في بعضها لا تكاد تجد بيتا لم يتصوف، وهكذا يتحدثون في السودان علىٰ الأقل، وأسباب ذلك:

أولا: أنه يعنىٰ بالجانب الروحي في الإنسان، وهو محرك للعواطف والمشاعر والإيمان، جاذب لما فيه من شعور بالراحة واللذة، والتخفف من أعباء المادة، وارتباطه بالدين يزيده وهجا؛ إذ يشعر الصوفي بالجمع بين إرضاء الإله وراحة الروح، والصوفية نجحوا ابتداء في بث هذا الشعور في الأتباع والمقبلين من العامة، حتىٰ الخاصة.

ثانيا: لو أخذنا بطائفة من التفسيرات الصوفية للشريعة، والتي غدت في زيادة علىٰ مر الزمان، فإن بعض الأقوال الرائجة في نطاق التصوف، مثل: جواز التحلل من الشريعة، بالوصول لمرتبة اليقين. كذلك: التخفيف من الوعيد، والمبالغة في المحبة الإلهية والرجاء لدرجة العشق. هذه لها أثرها الظاهر في العامة استجابة وقبولا؛ لموافقتها للطبائع والرغائب.

ثالثا: نجاح الصوفية في عملية التمويه عن المعتقدات الغالية والشطحات؛ إما بإنكارها جملة وتفصيلا، أو بتأويلها بالتأويلات المنجية من المساءلة، فلم يبق من وراء ذلك إلا سلوك وتهذيب وأخلاق، وكل هذه معاني مرغوبة ومطلوبة، أقبل عليها العامة والخاصة من أهل العلم، حتىٰ وجدت منهم من ينتسب للتصوف، ويتكلم بحمده.

رابعا: والمشايخ يتكلفون التخلق بالسلام والسكون، والإعراض عن الخصومات؛ لاتساع مذهبهم لكل المخالفات، فذلك صارف للآخرين عن التعرض لهم بشيء، إلا من عرف حقيقة التصوف.

خامسا: انعدام المقاومة الفكرية والعقدية بالقدر الكافي، لما سبق من أسباب: أوجد للتصوف طرقا آمنة ممهدة للتمدد في كل صقع، بلا معوقات تذكر.

سادسا: تركهم الاشتغال بالسياسية كموقف إستراتيجي، أبعد عنهم بطش الحاكم وتضييقه، بل كسبوا تعاطفه وتأييده، فإن فيهم ولاءً مطلقا للسلطة القائمة أيا كان شكلها وملتها وأداؤها سلبا أو إيجابا، إعمالا لمبدأ التسليم للقدر، وعدم منازعته في أحكامه.

سابعا: وجود متصوفة صادقي النية والقصد، متبعي الكتاب والسنة بقدر علمهم واجتهادهم، والتصريح بوجوب اتباع الشريعة، ونبذ كل ما خالفها: خفف من حدة النقد علىٰ التصوف، بل وأظهره مظلوما مهضوما من ناقديه؛ إذ كيف يكون بدعة، والمنتسبون إليه جماعة من الصادقين الصالحين؟!

ثامنا: تقسيم التصوف إلىٰ: سني، وفلسفي؛ أبقىٰ التصوف في دائرة القبول، فكل نقد أو مسألة فيها شطح وانحراف، فإنما ينسب ويعلق بالبدعي والفلسفي منه، ويبرأ منه ما سمي بـ: "التصوف السني"، فأي مسوغ لترك التصوف والإعراض عنه كليا بعد هذا؟

تاسعا: عناية المتصوفة بالنبي ﷺ: سيرة، وذاتا، وخبرا، وبكل شيء اتصل به، والاستغراق في ذلك، أوجب التفات كثير إليهم، والتحاقهم بهم؛ لمكانة النبي ﷺ في نفوس المسلمين.

عاشرا: عامة المصنفين في المقالات -إلا الرازي- لم يذكروا المتصوفة ضمن الفرق الخارجة عن السنة، بل سموا: "الحلولية"، و"الإباحية" ونحو ذلك، وهذا نقد لفكرة وجدت عند الصوفية وغيرهم من الفلاسفة، والباطنية، لكن التصوف لم يصنف في الفرق الخارجة عن السنة، أيده وساعده: أن المتصوفة لهم أقوال يوافقون بها أهل السنة في المعتقد، كالموقف من الصحابة، وفيهم تشكيلات عقدية منوعة، مما يوقع الحيرة بشأنهم، فقد أفادوا من هذا قبول طوائف لهم.

تطور التصوف:

فالسؤال الحاضر القائم: هل وقع في التصوف تطور؟

جوابه يعتمد علىٰ تفسير التصوف؛ فتفسيره بالزهد يعطيه نوع تطور مختلف عما هو عليه إذا ما فسر بغير الزهد؛ بالفناء والتخلق مثلا.

فعند القول بأن التصوف هو الزهد، فهذا يشكل نمط تطور ليس في ذات التصوف، بل تطور موصل إلىٰ التصوف؛ ذلك أن الزهد مر بمراحل مختلفة عند طائفة العباد خاصة، لا العلماء من: محدثين، ومفسرين، وفقهاء؛ الذين ظل مفهوم الزهد عندهم خاضعا لقانون السنة النبوية دون جنوح أو اختلال، فأما العباد فلم يكن لهم ذلك:

فأولا: بدأ الزهد مشروعا بمعناه الصحيح: ترك ما لا ينفع في الآخرة، وأن تكون الدنيا في يدك لا في قلبك، مع توازن بين الإيمان والعمل، وانسجام تام، هذا ما كان عليه الصحابة ومن تبعهم.

ثم تلاه ثانيا: بدوّ زهد مختلف؛ فيه: شدة الخوف والصعق والغشي، والتشديد في العبادة وحرمان النفس لتهذيبها. وهو أمر لم يعرف عن الصحابة، الذين هم أعلىٰ إيمانا إلا ما كان من النفر الثلاثة، الذين عزموا علىٰ الصوم وعدم الفطر، أو الزواج، أو أكل اللحم، وقد ذم مسلكهم النبي ﷺ فقال: (من رغب عن سنتي، فليس مني)[1].

---

(١) رواه البخاري، النكاح، باب: الترغيب في النكاح.

ثـم تـلاه ثالثـا: تغيـر آخـر أكثـر تميـزا وجنوحـا، تمثـل في: تـرك العلـم، والإعـراض عـن الـدنيا بالكليـة، واعتبـار ملـك شـيء منهـا منـاف للتقـوىٰ وللزهـد نفسـه وإيثـار الآخـرة، والخـروج والعزلـة والسياحة في الأرض بعيدا عن الناس.

ورابعا: بعد ذلك نما نوع جديـد مـن الزهـد، تجلىٰ في حـالات: الوجـد، والجـذب، أو الحـب الإلهـي؛ حـب للـذات لا طمعـا ولا خوفـا، ومـا صـاحبه مـن سـماع ورقـص، فمـن هـذه تبـدأ مرحلـة التصـوف الحقيقـي متصـلا بالزهـد البـدعي؛ إذ المعـاني السـابقة في المراحل الثلاث الأولىٰ كانـت مبكـرة، وشـيء منهـا ظهـر في عهـد النبي ﷺ ثم أصحابه.

لكن هذا النوع من الحـب، الـذي تمثـل في: الجـذب، والوجـد، لـم يعـرف كمصـطلح ولا معنـىٰ طيلـة عهـد النبـوة والصـحبة والتابعين، وربما نبغ شـيء منـه في أواخـر التـابعين، لكنـه تجلىٰ في نهاية القرن الثاني وبداية الثالث علىٰ يد أوائل المتصوفة.

فتكون البداية الحقيقية للتصوف إذن، هي نهايـة الزهـد البـدعي متصلة به، وهذا كما ذكرنا سابقا كان لطائفـة مـن العبـاد، ولـم يكـن لطائفة العلماء، الذين لـم يعـرف عـنهم زهـد بـدعي، بـأي نـوع مـن الانحرافات السابقة.

والنتيجة المهمة ههنا: أن التطور لم يلحق التصوف بل الزهد، الذي انتقل من المشروع إلىٰ البدعي، حتىٰ تهيأت البيئة والمادة الملائمة لقبول التصوف الآتي من الثقافات القديمة، فبيئة البدعة قابلة للفلسفة، وقد كان لنيكلسون بحث مهم في تطور التصوف في كتاب "في التصوف الإسلامي وتاريخه" قارب فيه إلىٰ حد تقرير الحقيقة الآنفة، فليراجع.[1]

ومما يؤكد تبني التصوف للزهد البدعي، واتخاذه ذريعة ومطية للتغلغل بين المسلمين: إعراض العلماء عنه، فلا تجد عالما معروفا بعلمه منتسبا إليه، بل الذم والحط، والنهي عن الانتساب إليه والتلبس به، إنما طمع الداعون للتصوف في فئة العباد الزهاد، الذين ليس لهم من العلم ما يميزون به تمييزا تاما بين المتشابهات، وإذا ذكروا مثل الفضيل بن عياض، فما كان إلا من جملة الزهاد العباد، ولا خبر له بالتصوف.

قال ابن الجوزي في بيان الفرق بين الزهد والتصوف، وهو فرق جدير بالنظر والفحص، للحد من خلط كاذب، اتخذ ردءا: " الصوفية من جملة الزهاد، وَقَدْ ذكرنا تلبيس إبليس عَلَىٰ الزهاد، إلا أن الصوفية انفردوا عَن الزهاد بصفات وأحوال، وتوسموا بسمات، فاحتجنا إِلَىٰ إفرادهم بالذكر.

---

(١) أول الكتاب.

والتصوف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلي، ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص، فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد، ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب، فلا بد من كشف تلبيس إبليس عليهم فِي طريقة القوم، ولا ينكشف ذلك إلا بكشف أصل هذه الطريقة وفروعها وشرح أمورها، وَالله الموفق للصواب.

كانت النسبة فِي زمن رَسُول اللهِ ﷺ إِلَىٰ الإيمان والإسلام، فيقال: مسلم ومؤمن. ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد، فتخلوا عَن الدنيا وانقطعوا إِلَىٰ العبادة، واتخذوا فِي ذلك طريقة تفردوا بِهَا، وأخلاقا تخلقوا بِهَا، ورأوا أن أول من انفرد به بخدمة الله سبحانه وتعالىٰ عند بيته الحرام رجل يقال لَهُ: صوفة. واسمه الغوث بْن مر. فانتسبوا إليه؛ لمشابهتهم إياه فِي الانقطاع إِلَىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، فسموا بالصوفية".[1]

فقد بين أن التصوف بدأ متكئا علىٰ الزهد البدعي، لكنه يرده إلىٰ ثقافة جاهلية قبل الإسلام، تمثل في طريقة عبادة عليها رجل يدعىٰ: صوفة. لا خارجية شرقية. وهذا رأي قيل، فنورده للاستيعاب، لكن هل هو مقبول؟

---

(١) تلبيس إبليس، ص٤٠٩-٤١٠.

هـذا شـأن آخـر؛ فـإن السـماع، والـرقص، والجـذب، والعشـق، والحب الإلهي معانٍ لا تنشأ من مجرد الجد والاجتهاد في الطاعـة، مثلما يكون من: شدة خـوف، وتـرك للـدنيا، وتكلـف عبـادة. فهـذه أهواء بشرية، يمكن أن تتولد من سوء فهم للنصوص، لكن المعاني الصوفية الآنفة لا تنشأ إلا بالتلقي عن فلاسفة، فلـو كـان التصـوف متلقـىٰ عـن صـوفة، أو تقليـدا لزهـده وعبادتـه، فمـن أيـن جـاءت المعـاني الصـوفية؟ إلا أن يكـون هـذا الزهـد البـدعي هـو المرتـع الخصب لثقافة آتية من الشرق، وهذا ما لم يذكره ابن الجوزي.

قـال: "وعلـىٰ هَـذَا كـان أوائـل القـوم، فلـبس إبلـيس علـيهم في أشياء، ثم لبس عَلَىٰ من بعدهم من تابعيهم، فكلمـا مضـىٰ قـرن زاد طمعـه في القـرن الثـاني، فـزاد تلبيسـه علـيهم، إِلَـىٰ أن تمكـن مـن المتأخرين غاية التمكن.

وكـان أصـل تلبيسـه علـيهم أنـه صـدهم عَـن العلـم، وأراهـم أن المقصـود العمـل، فلمـا أطفـأ مصـباح العلـم عنـدهم تخبطـوا فِـي الظلمات:

١- فمـنهم مـن أراه أن المقصـود مـن ذلـك: تـرك الـدنيا فِـي الجملـة. فرفضـوا مَـا يصـلح أبـدانهم، وشـبهوا المـال بالعقـارب، ونسوا أنه خلق للمصالح، وبـالغوا في الحمـل عَلَـىٰ النفـوس، حتـىٰ أنه كان فيهم من لا يضطجع، وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة، غير أنهم عَلَىٰ غير الجادة.

٢- وفيهم من كان لقلة علمه، يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة، وَهُوَ لا يدري.

٣- ثم جاء أقوام فتكلموا لهم فِي الجوع والفقر والوساوس والخطرات، وصنفوا فِي ذلك مثل الحارث المحاسبي.

٤- وجاء آخرون فهذبوا مذهب التصوف، وأفردوه بصفات ميزوه بِهَا من الاختصاص بالمرقعة والسماع والوجد والرقص والتصفيق، وتميزوا بزيادة النظافة والطهارة.

٥- ثم مَا زال الأمر ينمي، والأشياخ يضعون لهم أوضاعا، ويتكلمون بواقعاتهم، ويتفق بعدهم عَن العلماء، لا بل رؤيتهم مَا هم فيه أَوْفَي العلوم، حتىٰ سموه العلم الباطن، وجعلوا علم الشريعة العلم الظاهر.

٦- ومنهم من خرج به الجوع إِلَىٰ الخيالات الفاسدة، فادعىٰ عشق الحق والهيمان فيه، فكأنهم تخايلوا شخصا مستحسن الصورة فهاموا به، وهؤلاء بين الكفر والبدعة.

٧- ثم تشعبت بأقوام منهم الطرق، ففسدت عقائدهم، فمن هؤلاء من قال بالحلول، ومنهم من قال بالاتحاد، وما زال إبليس يخطبهم بفنون البدع حتىٰ جعلوا لأنفسهم سننا".[1]

---

(١) تلبيس إبليس ص٤١٥-٤١٦.

٨- قال: "وقد اندس في الصوفية أهل الإباحة، فتشبهوا بهم حفظا لدمائهم.. وهؤلاء لما أرادوا إمراح أنفسهم في شهواتها، لم يجدوا شيئًا يحقنون به دماءهم، ويسترون به، وينالون فيه أغراض النفوس كمذهب التصوف، فدخلوا فيه ظاهرا، وهم في الباطن كفرة، وليس لهؤلاء إلا السيف".[١]

ذلك في تفسيره، وقد تعمدت الترقيم لتسهيل الإشارة، فإنه ذكر إلىٰ النقطة (٣) امتدادا طبيعيا للبدعة، لكن من النقطة (٤) نقلة واسعة إلىٰ التصوف ومعانيه البعيدة كل البعد عن الإسلام، ولا تشتبه معه في شيء، فمن أين أتىٰ المصطلح والمعنىٰ، فدخل علىٰ خط الزهد البدعي فجأة هكذا؟ إلا الأمر الذي أشير إليه سابقا، ولم يشر إليه ابن الجوزي: أن التصوف لقي بيئة البدعة ملائمة، فركبها وربض عليها، ثم أنزل بها أصوله وفصوله، فلأجله صرت ترىٰ لدىٰ العباد الزهاد مسلكا مبتدعا غير معتاد عند المسلمين.

أما عند تفسير التصوف بحقيقته كما هو؛ أي: الفناء، فإن نوع التطور ههنا مختلف، ليس فيه زهد مشروع تحول وتبدل إلىٰ زهد بدعي، انتقل إلىٰ نوع فلسفة، بل أفكار كامنة تطلب ظهورها وتكاملها في بيئة ملائمة، في ظل أجواء محفوفة بالمخاطر

---

(١) تلبيس إبليس ص٨٣٣.

وعـدم القبـول لهـذا الفكـر الوافـد الأجنبـي، فـتراهم يقـدمون ويؤخرون، يظهرون ويبطنون، يلتمسـون ردة الفعـل وقبـول النـاس بهـذه المصـطلحات الجديـدة، ومـا تضـمنته مـن معـاني، خشـية أن يصـيبهم سـيف الشـرع، كمـا أصـاب الحـلاج، فـالمتتبع لأخبـار المتصـوفة في الطبقتين الأولىٰ والثانيـة، علىٰ تصـنيف السـلمي في "طبقاته" يرىٰ جليـا أنهـم كـانوا علىٰ مـذاهب فيهـا إبـداء أفكـارهم وإظهارها:

❁ فقوم مـذهبهم الكتمـان والتواصـي بـذلك، ولـوم المفصـح علىٰ إفصاحه، كما حكـي مـن لـوم الجنيـد والشـبلي الحـلاج علىٰ بوحه بالسر، وتعرضه للهلاك.

❁ وقوم مذهبهم البوح والصبر علىٰ ما يأتي من أذىٰ، وقد كـان علـىٰ هـذا المـذهب الحـلاج وأبـو العبـاس بـن عطـاء الأدمـىٰ، وكلاهما وقع عليه البلاء والأذىٰ.

❁ وقوم ركبوا مذهب الجنون، الذي سموه بالجـذب، فكـانوا ينطقون بالشطحات ويعتذرون – أو يعتـذر لهـم – بـالجنون وزوال العقـل بسـبب العشـق والحـب الإلهـي، كمـا جـاءت الأخبـار عـن البسطامي والشبلي، وقد درؤوا عن أنفسهم به.

❁ وقوم منهم كانوا يتأولون، ويدفعون بالتأويل عـن أنفسـهم، كما كان من ذي النـون المصـري والنـوري، وكلاهمـا عرضـا علىٰ الخليفة والوالي فنجوا بالتأويل.

مع ذلك، فإن الدارس للأفكار الصوفية حين بدأت، من خلال ما نسب وقيل علىٰ لسان الطبقة الأولىٰ ثم الثانية، وما ألف وكتب في هذه الفترة وما بعدها قريبا في القرن الرابع، في مثل كتاب: "التعرف" للكلاباذي، و"اللمع" للطوسي. ثم في القرن الخامس، في مثل كتاب: "الرسالة" للقشيري، و"كشف المحجوب" للهجويري. يرىٰ علىٰ جهة اليقين أفكارا متحدة غير مختلفة في المصطلحات والمضامين، يتكلم بها أهل هذه الطبقات كافة، المستوعبة لطبقات السلمي؛ أي: امتدادا من أول الثالث حتىٰ بداية الخامس، ليس ثمة تطور ملحوظ ههنا، من جهة انحراف بدأ لم يكن، أو معانٍ جديدة لم تكن، كلا، بل غاية ما يلحظه، تردد في الكشف عن السر، وسرعة في الإنكار، والتملص من الإلزام، والتبريء، هذا لا غير، أما الأفكار، فما تراه وتقرأ عنه في أول التصوف، تجد عينه في قول ابن عربي وأضرابه في القرن السابع، ومن ثم أي محاولة لتحسين صورة التصوف في بدايته، والادعاء بأن القول بالفناء في الذات الإلهية، والحلول والاتحاد والوحدة، وكمال العارف والمعرفة والقدرة، إنما كان بعد ذلك، أو في عهد ابن عربي، فإنما يصطدم بحقيقة لا تحجبها الشمس، كموقف الحلاج في توحيده، والنوري في عشقه الإلهي، وأبي حمزة البغدادي في حلوليته، والبسطامي في اتحاده، والشبلي مثله، وغيرهم كثير، وهؤلاء كانوا أئمة القرن الأول.

وقد يحلو لبعضهم أن يشكل علىٰ هذا بالقول: إنه لا سند يثبت كل هذا عن هؤلاء.

ومع طرافته وسقوطه علميا؛ إذ إن فتح باب التحقق بالسند، لا يفتح الباب للشك فيما نسب إليهم من مذمومات، بل الشك كذلك في الممادح، لكن مع ذلك، فالكتب المؤلفة في تلك الفترة المبكرة كـ"اللمع" للطوسي، و"التعرف" للكلاباذي في الرابع، و"الرسالة" للقشيري، و"كشف المحجوب" للهجويري، و"قوت القلوب" للمكي في الخامس، وغيرها كثير، وثائق مؤكدة علىٰ وجود هذا الفكر المنحرف في التصوف منذ بداية التصوف. بغض النظر عن الأسماء التي تنسب إليها الأفكار، لكن حكايتها في أوقات معاصرة أو قريبة، وإجماعها علىٰ ذلك: دليل علىٰ وجودها وحملتها، لا تأخرها.

يقول نيكلسون عن تعريفات ناهزت المائة، كلها أو جلها تدور حول معنىٰ الصفاء، ولا أثر فيها لتطور جذري حدث في التصوف، والمدة المستوعبة لها نحو من مئتي سنة، منذ بدء التصوف، فلو كان ثمة تطور حقيقي، لظهر جليا في هذه التعريفات التي ألقيت في مدة قرنين: "تحتوي هذه الكتب [الرسالة للقشيري، تذكرة الأولياء للعطار، ونفحات الأنس للجامي] نحوا من مائة تعريف لهذين الاصطلاحين [صوفي، وتصوف] لا يتجاوز واحد منها أكثر من بضعة سطور.

وقد اعتقدت أنه ربما كان من المهم، بل من المفيد: أن يرتب أهم هذه التعريفات ترتيبا زمنيا [بدأت من ٢٠٠هـ إلىٰ ٤٤٠هـ] بقدر ما يمكن هذا الترتيب، فإن بهذه الطريقة وحدها يمكن أن تلقىٰ هذه التعريفات ضوءا علىٰ التطور التاريخي للتصوف، ومع ذلك كانت النتيجة ضئيلة إلىٰ حد ما".[١]

فخلاصة التطور في التصوف ينحصر فيما يلي:

١- تكامل الظهور للأفكار في القرون اللاحقة السادس والسابع، بعد نوع تكتم.

٢- ظهور الطرق منذ القرن السادس؛ بظهور القادرية والرفاعية والشاذلية، وتنظيم أكثر للتعاليم، ووجود مدارس وأربطة وعملية اجتماعية كاملة.

٣- غلبة جانب الرياضة الذهنية للتصفية والسلوك علىٰ المجاهدة والتقشف، بل ضمور وتلاشي طريقة الأولين في المجاهدة وتعذيب البدن.

٤- انكشاف كامل لعلاقة التصوف بالفلسفة، مع ظهور فلاسفة المتصوفة منذ القرن السادس كالسهروردي المقتول وابن سينا، ثم ابن عربي وابن طفيل.

---

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص١، وما بين المعكوفتين زيادة مني.

٥- ضـمور الاتجـاه السـلفي في التصـوف، وغلبـة الكـلام والفلسفة علىٰ المتصوفة، فقد كان المتصوفة -لا التصوف- في مراحله الأولىٰ، نابذا للكلام والفلسفة وأهله، كما هو حال السلمي صاحب الطبقات، والهروي صاحب المنازل، وقد حكىٰ ابن تيمية في "الاستقامة" شهادة أئمة من المتصوفة علىٰ براءة التصوف من الكلام، مما يعني وجود تيار سلفي داخل التصوف في ذلك الحين، لكنهم كانوا من العباد لا العلماء؛ ما يعني عدم خلوهم من هنات وبدع، لم تصل لدرجة التفلسف، لكن هذا التيار أيضا ضعف، فلم ير منه إلا أفراد كالعز بن عبدالسلام، وبعض الطرق كالسنوسية في ليبيا، والتي قاومت الاحتلال الإيطالي، وكان عليهم عمر المختار.

رابعـًا

الـمصطلحات والـمصنفات والشخصيات

الـمصطلحات

المقـام: يفسـر الصـوفية المقـام تفسـيرا قرآنيـا، يقـول السـراج: "معنـاه: مقـام العبـد بـين يـدي الله عـز وجـل، وفيمـا يقـام فيـه مـن العبـــادات، قـــال الله تعـــالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم:١٤].

وسئل أبو بكـر الواسـطي عـن قـول النبـي ﷺ: (الأرواح جنـود مجندة) قال: «علىٰ قدر المقامات».[1]

وقد ذهب جل المتصوفة: إلىٰ اعتبار المقـام مـن كسـب العبـد، وهـو مـا يتحقـق بـه بمنازلتـه مـن الآداب، ممـا يتوصـل إليـه بنـوع تصرف، يتحقق به بضرب تطلب، ومقاساة وتكلف.[2]

---

(١) اللمع ص٦٥.
(٢) الرسالة ١/ ٢٠٤.

ويكاد الإجماع ينعقد بينهم علىٰ اعتبار التوبة أول المقامات علىٰ الإطلاق، ذهب إلىٰ ذلك: المحاسبي، والسلمي، وأبو طالب، والقشيري، والسراج، والسهروردي، إلا ما كان من الهروي فإنه قدم اليقظة بين يدي التوبة، ويبدو أنه شكلي.[١]

الحال: من المواهب، يقول السراج: "ما يحل بالقلوب أو تحل به؛ من صفاء الأذكار".[٢] وهو معنىٰ يرد علىٰ القلب من غير تعمد ولا اجتلاب ولا اكتساب.[٣] ومن أمثلة الأحوال: المراقبة، والقرب، والشوق، والأنس، والطمأنينة، والمشاهدة.[٤]

المعرفة: قال الطوسي: "المعرفة علىٰ ثلاثة أوجه: معرفة إقرار، ومعرفة حقيقة، ومعرفة مشاهدة. وفي معرفة المشاهدة يندرج: الفهم، والعلم، والعبارة، والكلام".[٥] وقال الهروي: "المعرفة: إحاطة بعين الشيء كما هو".[٦]

---

(١) الوصايا ص٢٢٢، تسعة كتب في أصول التصوف والزهد ص١٦٧، قوت القلوب ٢/ ٩١، الرسالة ١/ ٢٧٥، اللمع ٦٨، عوارف المعارف، ملحق بالإحياء ٥/ ٣٠٩.

(٢) اللمع ص٦٦.

(٣) الرسالة ١/ ٢٠٦.

(٤) اللمع ص٦٨-١٠٤، العوارف، ملحق بالإحياء ٥/ ٣١٩.

(٥) اللمع ص٦٤.

(٦) منازل السائرين، منزلة المعرفة ص١٢٥.

قال أبو اليزيد: "للخلق أحوال ولا حال للعارف؛ لأنه محيت رسومه، وفنيت هويته بهوية غيره، وغيبت آثاره بآثار غيره". وقال الواسطي: "لا تصح المعرفة وفي العبد استغناء بالله وافتقار إليه".(١)

الحلول والاتحاد والوحدة: تدور حول معنىً متقارب هو: انتفاء الاثنينية. والفرق بين الحلول والاتحاد: أن في الحلول عدم امتزاج؛ بأن يحل شيء في آخر، مع احتفاظ كل منهما بخصائصه، كالزيت مع الزيتون، وهذا حلول سرياني، والماء في الإناء، وهذا حلول جواري. أما في الاتحاد ففناء كلا الخاصيتين؛ لتكون ذاتا واحدة بخاصية واحدة.(٢)

أما الوحدة: فهو القول بأن الله هو كل شيء، وكل شيء هو الله، وله صورتان:

❁ الأولىٰ: الله وحده هو الحقيقي، والعالم مجموع من التجليات أو الصدورات ليست لها أية حقيقة ثابتة ولا جوهر متميز، وهذه وحدة الوجود الروحية.

❁ والثانية: العالم وحده الحقيقي، والله تعالىٰ مجموع كل ما هو موجود، وهذا مذهب وحدة الوجود المادية.(٣)

---

(١) الرسالة ٢/ ٦٠١.

(٢) التعريفات ص٢، ٤١، معجم مصطلحات الصوفية ص٣٨.

(٣) المعجم الفلسفي ص٢١٢.

الإنسان الكامل: روح العالم، ونسبته إليه كنسبة الروح الإنساني إلىٰ البدن، فبقاؤه ببقائه، وكل رقيقة منه تمتد إليه لتمده وتحفظه. وهو موجود علىٰ الصورة الإلهية، وهو مرآة الحق، يرىٰ الحق نفسه فيه، وبه تعرف الحق إلىٰ الخلق، وبدونه لا يعرف؛ لأنه علىٰ صورته أزلا وأبدا. فله جانبان: إلهي، وخلقي. له جميع الصفات الإلهية والكونية. فهو برزخ وواسطة بين الحق والخلق، فالفيض الإلهي يصل من خلاله، وفناء الخلق فيه من خلاله كذلك. وله أسماء كثيرة، ويظهر في كل زمان ومكان، وهو واحد، وأكمل ظهور له هو صورة النبي محمد ﷺ، ثم الأنبياء والأولياء. وله التصرف والتمكين في الكون والكشف بحكم الخلافة الإلهية، وكل إنسان يكتنز حقيقة الإنسان الكامل في نفسه، فمنهم من ينال المرتبة بحكم الاصطفاء، ومنهم بحسب الاستعداد.(١)

القطب: في اللغة هو: الجمع. يقال: جاءت العرب قاطبة.(٢) قال الجرجاني: "القطب، وقد يسمىٰ غوثا، باعتبار التجاء الملهوف إليه، وهو عبارة عن الواحد الذي هو موضع نظر الله، في كل زمان، أعطاه الطِّلَّسم الأعظم من لدنه، وهو يسري في الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة، سريان الروح في الجسد، بيده

---

(١) الفتوحات المكية ٣/ ٣٥٧، التعريفات ص١٧، كشف اصطلاحات الفنون ١/ ١٠٤، الإنسان الكامل ٢/ ٧٤-٧٨.

(٢) مقاييس اللغة ٥/ ١٠٥.

قسطاس الفيض الأعم، وزنه يتبع علمه، وعلمه يتبع علم الحق، وعلم الحق يتبع الماهيات غير المجعولة، فهو يفيض روح الحياة علىٰ الكون الأعلىٰ والأسفل..".[١]

وقال التهانوي: "والقطب عند أهل السلوك: عبارة عن رجل واحد هو موضع نظر الله تعالىٰ من العالم في كل زمان، ويسمىٰ بالغوث أيضا، وهو خلق علىٰ قلب محمد ﷺ، فالقطب هو الذي يكون علىٰ قلب محمد ﷺ، ويسمىٰ أيضا بقطب العالم، وقطب الأقطاب، والقطب الأكبر، وقطب الرشاد، وقطب المدار".[٢]

الولي: يمثل مرتبة "الإنسان الكامل" يقول المستشرق الألماني شيدر: "الولي والشيخ الذي يحمل طابع الإنسان الكامل".[٣] ويقول المستشرق الإنجليزي نيكلسون: "الإنسان الكامل تولاه الله، فولاه أعمالا".[٤] يقول الهجويري: "اعلم أن قاعدة وأساس طريقة التصوف والمعرفة جملة يقوم علىٰ الولاية وإثباتها؛ لأن جميع المشايخ رضي الله عنهم متفقون في حكم إثباتها، غير أن كلا منهم بيّن هذا بعبارة مختلفة، ومحمد بن علي [الحكيم الترمذي] رضي الله عنه مخصوص بإطلاق هذه العبارة علىٰ الحقيقة".[٥]

---

(١) التعريفات ص٧٦.
(٢) كشاف اصطلاحات الفنون ص١١٦٧.
(٣) الإنسان الكامل في الإسلام ص٩٠.
(٤) الصوفية الإسلام ص١٢١.
(٥) كشف المحجوب ٢/ ٤٢٢.

وقال القاشاني: "الولي: من تولىٰ الحق أمره، وحفظه من العصيان، ولم يخله ونفسه بالخذلان، حتىٰ يبلغه في الكمال مبلغ الرجال، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف:١٩٦]".(١)

الحقيقة المحمدية: له مرادفات: النور المحمدي، نور محمد، الكلمة المحمدية، حقيقة محمد.(٢)

قال القاشاني: "الحقيقة المحمدية: هي الذات مع التعين الأول، فله الأسماء الحسنىٰ كلها، وهو الاسم الأعظم".(٣)

ويقول ابن عربي: "بدء الخلق الهباء، وأول موجود فيه: الحقيقة المحمدية... ومم وجد؟

من الحقيقة المعلومة التي لا تتصف بالوجود ولا العدم (حقيقة الحقائق)".(٤)

تقول سعاد الحكيم: "الحقيقة المحمدية: هي أكمل مجلىٰ خلقي ظهر فيه الحق، بل هي الإنسان الكامل بأخص معانيه، وإن كان كل موجود هو مجلىٰ خاصا لاسم إلهي، فإن محمدا ﷺ قد انفرد بأنه مجلىٰ للاسم الجامع، وهو الاسم الأعظم: الله. ولذلك كانت له مرتبة الجمعية المطلقة".(٥)

---

(١) اصطلاحات الصوفية ص٧٦.
(٢) المعجم الصوفي ١/ ٣٤٧.
(٣) اصطلاحات الصوفية ص٨٠، التعريفات ص٤٠.
(٤) الفتوحات المكية ١/ ١١٨، المعجم الصوفي ١/ ٣٤٨.
(٥) المعجم الصوفي ١/ ٣٤٨.

المصنفات

للصوفية إنتاج مكتوب منذ ظهور التصوف:

(**المحاسبي**) كتب الحارث المحاسبي المتوفىٰ سنة ٢٤٣هـ معروفة مشهورة كـ: "الرعاية لحقوق الله"، و"التوهم"، و"آداب النفوس". وعامتها مطبوعة. والحارث معدود في الزهاد المتكلمين، ليس من أهل الحلول.

(**الخراز**) ومن أقدم المؤلفات كتاب "الصدق.. الطريق إلىٰ الله" لأبي سعيد الخراز المتوفىٰ سنة ٢٧٧هـ. وهو مؤلف صغير مطبوع بتقديم عبد الحليم محمود شيخ الأزهر، تطرق فيه إلىٰ طائفة من أعمال القلوب: التوكل، والخوف، والحياء، والشكر، والمحبة، والرضا.

(**السراج**) ومن المصنفات المتقدمة الحاوية لجملة من المسائل المتعلقة بالتصوف، كتاب "اللمع" للسراج الطوسي المتوفىٰ سنة ٣٧٨هـ، وقد قسمه إلىٰ كتب، فبعد أن قدم للتصوف، وبيان منزلته، وسبب التسمية، وغير ذلك من المقدمات، قسمه إلىٰ: كتاب الأحوال والمقامات، وكتاب الأسوة والاقتداء برسول الله ﷺ، وكتاب الصحابة، وكتاب آداب المتصوفة، وكتاب المسائل واختلاف أقاويلهم في الأجوبة، وكتاب السماع، وكتاب الوجد، وكتاب إثبات الآيات والكرامات، وكتاب البيان عن المشكلات، وكتاب تفسير الشطحات والكلمات. وفيه دفاع عن المتهمين بالحلول.

(**الكلاباذي**) ومنهـا: كتـاب "التعـرف لمـذهب أهـل التصـوف" لأبـي بكـر محمـد الكلابـاذي المتـوفىٰ سـنة ٣٨٠هـ، وقـد جعلـه في خمسة وسبعين بابا، قسم منهـا في عقائـدهم، اسـتغرق ثلاثـين بابـا، ثم في علوم التصوف وأحواله بقية الأبواب.

(**المكي**) وكتاب "قوت القلوب" لأبي طالـب محمـد بـن علـي ابن عطية الحارثي المكي المتوفىٰ سـنة ٣٨٦هـ، في ثمانيـة وأربعـين فصلا:

❁ استغرق أربعة وعشرين فصلا في الأوراد والأذكـار والتعبـد والفضائل.

❁ ومن الخامس والعشرين حتىٰ الواحـد والثلاثـين في أبـواب متفرقة من التصوف: الـنفس، والمواجيـد، والمراقبـة، والمريـدين، والمقـربين والمـوقنين، وأهـل المقامـات، والخـواطر، وعلمـاء الظاهر والآخرة، والعلم وطريقة السـلف، وذم القصـص والكـلام، وتفصـيل العلـوم محـدثها ومنكرهـا، وعلـم الإيمـان واليقـين، والرخصة والسعة في النقل والرواية.

❁ خصـص الفصـل الثـاني والثلاثـين لشـرح المقامـات مبتـدئا بالتوبة، الصبر، الرجاء، الخوف، الزهد، التوكل، الرضا، المحبة.

❁ في الثالث والثلاثين ذكـر دعـائم الإسـلام الخمـس مفصـلا: الشهادة، والطهارة، الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج.

❁ في الخـامس والثلاثـين تفصـيل الإسـلام والإيمـان وعقـود السنة، واعتقاد القلوب، وشرح معاملة الناس.

❁ في السادس والثلاثين فضل أهل السنة وطرق السلف.

❁ في السابع والثلاثين شرح الكبائر التي تحبط الأعمال وتوبق العمال.

❁ في الثامن والثلاثين الإخلاص وشرح النيات.

❁ في التاسع والثلاثين ترتيب الأوقات بالنقصان منها أو بزيادة الأوقات.

❁ من الأربعين حتىٰ الثامن والأربعين: الأطعمة وآداب الأكل، وفرائض الفقر، وحكم المسافر ومقاصد السفر، وحكم الإمام ووصف الإمامة والمأموم، والأخوة والصحبة، والتزويج فعله وتركه وأحكام النساء، ودخول الحمام، حكم المتسبب للمعاش، تفصيل الحلال والحرام والمشتبهات.

(**القشيري**) ومنها: "الرسالة" لأبي القاسم القشيري المتوفىٰ سنة ٤٦٥هـ، ابتدأه ببيان الباعث لوضعه الكتاب، ثم اعتقاد الطائفة، ثم قسمه إلىٰ أربعة أقسام:

- الأول منه في تراجم أعلام التصوف منذ بدئه إلىٰ زمانه، عد منهم ثلاثا وثمانين.
- والثاني في المصطلحات الصوفية، عد منها ثمانية وعشرين.
- والثالث في المقامات والأحوال، عد منها جملة.
- والرابع: في الكرامات، والولاية، وآداب المريد.

(**الهجـويري**) ومنهـا: "كشـف المحجـوب" لعلـي بـن عثمـان الجلابي الهجويري عاش في القرن الرابع والخامس، جعل كتابه في أبواب أربعة عشر:

❁ بـدأها بموضـوعات في التصـوف: العلـم، والفقـر، والتصـوف، ولـبس المرقعـة، واخـتلافهم في الفقـر والصـفو، والملامة. وذلك إلىٰ الباب السادس.

❁ ثم شرع في التراجم للمتصوفة، فعد الخلفاء الأربعة منهم، كذا أهل البيت، وأهل الصفة، ثم ثنىٰ بالتابعين والأنصار، وأتباع التابعين، حتىٰ رجال الصوفية إلىٰ الباب الثالث عشر.

❁ في الرابع عشر عرض لثنتي عشرة فرقة صوفية، المقبولة منها والمردودة.

❁ ثم انتقل إلىٰ كشف الحجب في أحد عشر كشفا، مبتدئًا بكشف الحجاب في معرفة الله تعالىٰ، التوحيد، الإيمان، الطهارة، الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج، الصحبة، بيان منطقهم وحدود ألفاظهم وحقائق معانيهم، في السماع وآدابه.

يضاف إلىٰ ما سبق مصنفات الغزالي، وعلىٰ رأسها "إحياء علوم الدين"، وله مصنفات أخرىٰ.

الشخصيات

جابر بن حيان المتوفىٰ سنة ٢٠٠هـ، فيلسوف كيميائي، كان يعرف بالصوفي، وكان شيعيا، وهو علىٰ مذهب المتصوفة من أهل الإسلام، كالحارث المحاسبي وسهل التستري.(١)

وقد وصفه ابن خلدون بأنه كبير السحرة.(٢) وقد ألف مجموعة من الكتب هي نموذج سابق لرسائل إخوان الصفا.(٣)

قال ابن النديم: "المعروف بالصوفي، واختلف الناس في أمره، فقالت الشيعة: إنه كان من كبارهم.. وكان من أهل الكوفة، وقيل: إنه كان في جملة البرامكة".(٤)

عبدك الصوفي المتوفىٰ سنة ٢٠١هـ، واشتهر بالصوفي، وكان أول من أطلق عليه اسم "صوفي".(٥)

وذكر الملطي فرقة "العبدكية"، ضمن فرق الزنادقة، وقال: "ومنهم العبدكية، زعموا أن الدنيا حرام محرم، لا يحل الأخذ منها إلا القوت، من حين ذهب أئمة العدل، ولا تحل الدنيا إلا بإمام عادل، وإلا فهي حرام، ومعاملة أهلها حرام، فحل لك أن تأخذ القوت من الحرام من حيث كان، وإنما سموا

---

(١) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص١١١، نشأة الفكر الفلسفي ٣/ ٤٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص٤٩٧.

(٣) تاريخ الإلحاد في الإسلام ص١٥٧.

(٤) الفهرست ص٥٤٦، الأعلام ٢/ ١٠٣.

(٥) نشأة الفكر الفلسفي ٣/ ٢٧٨، التصوف المنشأ والمصادر ص١٤٣.

"العبدكية"؛ لأن عبدك وضع لهم هذا، ودعاهم إليه، وأمرهم بتصديقه".[١]

أبو هاشم عثمان بن شريك الكوفي المتوفىٰ سنة ١٥٠هـ، ويقال أيضا: إنه أول من أطلق عليه "صوفي".[٢] قيل: كان يلبس لباسا طويلا من الصوف كفعل الرهبان، وكان حلوليا اتحاديا، وكان باطنيا دهريا، مراده من وضع هذه المذاهب: أن يثير الاضطراب في الإسلام.[٣]

ذو النون المصري المتوفىٰ سنة ٢٤٥هـ، من أهل النوبة.[٤] كان يوصف بأنه واضع أسس التصوف، وهو أول من تكلم في الأحوال والمقامات.[٥] وهو رأس هذه الفرقة، فالكل أخذ عنه، وانتسب إليه، وهو أول من فسر الإشارات الصوفية.[٦]

وقد اشتهر بالسحر، وهو في طبقة جابر بن حيان، وتقلد علم الباطن، وأشرف علىٰ كثير من علوم الفلسفة، وكان ملازما لبيوت الحكمة القديمة في بلدته أخميم، والتي كانت تسمىٰ بـ"البرابي".[٧]

---

(١) التنبيه والرد علىٰ أهل الأهواء والبدع ص٩٣.
(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص٣، نشأة الفكر الفلسفي ٣/ ٢٨٧، التصوف منشؤه ومصطلحاته ص٢١.
(٣) التصوف المنشأ والمصادر ص١٤٤-١٤٥.
(٤) طبقات الصوفية ص١٥.
(٥) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص٧.
(٦) دائرة المعارف الإسلامية ٩/ ٤١٩.
(٧) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص١٢٧.

كثير العكوف على دراسة النقوش المصرية في المعابد وحل رموزها، وكانت مصر مهد الكيمياء والسحر وعلوم الأسرار، وهو من أصحاب: السحر والطلسمات.(١)

أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي المتوفى سنة٢٦١هـ، كان جده مجوسيا، وكان له شيخ سندي يتلقى عنه الحقائق، يقول: "صحبت أبا علي السندي، فكنت ألقنه ما يقيم به فرضه، وكان يعلمني التوحيد والحقائق صرفا".(٢) فربما أخذ عنه تصوفه، له عبارات في الحلول والاتحاد والفناء في الإله، ولعله أول من أطلقها حين قال: "أنا الله".(٣)

أبو الحسين النوري أحمد بن محمد الخراساني المتوفى سنة ٢٩٥هـ، قال الذهبي: "شيخ الطائفة بالعراق، وأحذقهم بلطائف الحقائق، وله عبارات دقيقة، يتعلق بها من انحرف من الصوفية، نسأل الله العفو.. جرت له محنة، وفر من بغداد في قيام غلام الخليل على الصوفية، فأقام بالرقة مدة متخليا منعزلا.. قال: من رأيته يدعي مع الله حالة تخرج عن الشرع، فلا تقربن منه..

قال للجنيد: غششتهم فصدروك، ونصحت لهم فرموني بالحجارة.

---

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص٤٠٥.
(٢) اللمع ص٥٢.
(٣) اللمع ص٤٥٩، مدخل إلى التصوف الإسلامي ص١١٧.

قيل: كان النوري يلهج بفناء صفات العارف، فكان ذلك أبو جاد فناء ذات العارف، كما زعمت الاتحادية، فقالوا بتعميم فناء السوىٰ، وقالوا: ما في الكون سوىٰ الله، وصرحوا بأنه تعالىٰ اتحد لخلقه، وأنت أنا، وأنا أنت، وأنشدوا:

وألتذ أن مرت علىٰ جسدي يدي لأني في التحقيق ليست سواكم

فنعوذ بالله من الضلال. قال الخلدي: رأيته في المنام، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: طاحت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات، وفنيت تلك العلوم، ونفذت تلك الرسوم، وما نفعنا إلا ركعات كنا نركعها في السحر". (١)

القاسم بن محمد الجنيد المتوفىٰ سنة ٢٩٧هـ، سيد الطائفة المجمع عليه، له آراء متناقضة؛ فمرة يوصي باتباع الكتاب والسنة، ويقيد الطريقة بهما، ومرة ينهىٰ عن طلب الحديث، وله آراء غاية في الغلو، وضد ذلك أيضا، قال مرة للشبلي: "نحن حبرنا هذا العلم تحبيرا، وخبأناه في السراديب، ثم أتيت أنت وأظهرته علىٰ رؤوس الملأ. قال الشبلي: أنا أقول، وأنا أسمع، ما في الدارين غيري. فسكت الجنيد". (٢)

---

(١) سير أعلام النبلاء، ترجمة النوري.

(٢) التعرف ص١٧٠، كُتِب في الجنيد رسالة عن آرائه العقدية والصوفية، بجامعة أم القرىٰ، كتبتها: نوال فلاتة.

الحسين بن منصور الحلاج المتوفىٰ سنة **٣٠٩**هـ، ولد في بلدة بيضاء بفارس خراسان، ونشأ في واسط، وتتلمذ علىٰ: سهل، والنوري، والجنيد، وعمرو بن عثمان المكي، كان أول صوفي يشير إلىٰ فكرة الفيض والنور المحمدي أو الحقيقة المحمدية.[١] له آراء مشهورة في الحلول والاتحاد، قتل لأجلها، وهو من أعظم السحرة المتصوفة؛ كان محتالا مشعوذا، يعرف شيئا من صناعة الكيمياء، ويتعاطىٰ مذاهب الصوفية.[٢]

يحيىٰ بن حبش بن أميرك السهروردي المقتول سنة **٥٨٧**هـ، كان صوفيا إشراقيا، وكان يعاني علوم الأوائل من أهل الفلسفة والسيمياء وأبواب النيرنجات، قتله الملك العادل ابن صلاح الدين الأيوبي بعدما بلغه أمره.[٣]

(١) مدخل إلىٰ التصوف الإسلامي ص١٣١.
(٢) الفهرست ص٣٢٨، أخبار الحكماء ص٢٦٩.
(٣) النجوم الزاهرة ٦/ ١٠٤، وفيات الأعيان ٦/ ٢٦٨.

خامسًا: الحقيقة

الماهية، المصدر، المنهج، المعتقد.

الماهية

دائما ما يرجع الصوفية -وغيرهم- بالتصوف إلىٰ الزهد، وإن كنا نجد في كلام المحققين منهم شيئا غير هذا: أن التصوف ليس عين الزهد، ولا الزهد شرط في التصوف، وفي هذا يقول أعلام المتصوفة والباحثون:

❁ السهروردي: "التصوف غير الفقر، والزهد غير الفقر، والتصوف غير الزهد، فالتصوف اسم جامع لمعاني الفقر، ومعاني الزهد، مع مزيد أوصاف وإضافات لا يكون بدونها الرجل صوفيا، وإن كان زاهدا فقيرا".[1]

❁ ابن الجوزي: "التصوف مذهب معروف، يزيد علىٰ الزهد، يدل علىٰ الفرق بينهما: أن الزهد لم يذمه أحد، وقد ذموا التصوف".[2]

---

(١) عوارف المعارف ملحق بالإحياء له ٥/ ٧٩.

(٢) تلبيس إبليس ص١٦٥.

❁ "الصوفية من جملة الزهاد، وقد ذكرنا تلبيس إبليس علىٰ الزهـاد، إلا أن الصـوفية انفـردوا بصـفات وأحـوال، وتوسـموا بسمات، فاحتجنا إلىٰ إفرادهم بالذكر".(١)

❁ نيكلسـون: "والصـوفية الأوائـل كـانوا في الحقيقـة زهـادا وادعين، أكثر منهم متصوفة".(٢)

❁ عبـد الحليـم محمـود: "الزهـد في الـدنيا شـيء، والتصـوف شيء آخر، ولا يلزم عن كون الصوفي زاهدا أن يكون التصوف هو الزهد".(٣)

❁ سعاد الحكيم: "البداية لم تكن- كما ظن بعض الباحثين - في الزهـد، الزهـد يتبـع الحيـاة النفسـية، بـل تجلـت في حـالات الوجـد، التـي كانـت خيـر تعبيـر عـن إحسـاس العبـد بالحضـور الإلهي".(٤)

❁ محمـد زكـي إبـراهيم رائـد العشـيرة المحمديـة في مصـر: "الصوفي أكثر من زاهـد؛ إذ الزاهـد في الـدنيا زاهـد في لا شـيء، أمـا الصوفي فلا يزهد إلا فيما يحجبه عن الله".(٥)

---

(١) تلبيس إبليس ص١٦١.
(٢) الصوفية في الإسلام ص١٢.
(٣) قضية التصوف: المنقذ من الضلال ص٤٠.
(٤) عودة الواصل لها ص٨٩.
(٥) مجلة التصوف الإسلامي الصادرة عن المجلس الصوفي الأعلىٰ بمصر، عدد رجب ١٤١٤هـ، ص٤٢.

إذا كان كذلك، فما التصوف؟

التصوف في أقوال المحققين هو: الفناء:

❁ التفتازاني شيخ مشايخ الطرق الصوفية في مصر: "الفناء في الحقيقة المطلقة، وهو أمر يميز التصوف بمعناه الاصطلاحي الدقيق".(١)

❁ محمد زكي إبراهيم: "التصوف فناء صفة العبد، ببقاء صفة المعبود".(٢)

❁ الطوسي: "الفانون بما وجدوا؛ لأن كل واجد قد فني بما وجد".(٣)

❁ الهجويري: "الصوفي هو الفاني عن نفسه، والباقي بالحق، قد تحرر من قبضة الطبائع، واتصل بحقيقة الحقائق، والمتصوف هو من يطلب هذه الدرجة بالمجاهدة، ويقوم نفسه في الطلب على معاملاتهم".(٤)

---

(١) الموسوعة الفلسفية العربية ١/ ٢٥٩.
(٢) مجلة التصوف الإسلامي الصادرة عن المجلس الصوفي الأعلى بمصر، عدد رجب ١٤١٤هـ، ص٤٢.
(٣) اللمع ص٤٧.
(٤) كشف المحجوب ١/ ٢٣١.

❁ أبـو المواهـب الشـاذلي: "الفنـا هـو أسـاس الطريـق، وبـه يتوصل إلىٰ مقام التحقيـق، ومـن لـم يجـد بمهـر الفنـا، لـم يسـتجل طلعة الحسنا، وليس له في غد واليوم نصيب مع القوم".[١]

ثمـة مصـطلحات أخـرىٰ تـدور حـول ذات معنـىٰ الفنـاء، هـي: الاصـــطلام، والمحـــو، والســـكر، والجـــذب، والوجـــد، والاضمحلال. والمعنىٰ: إما الفناء عن الأخـلاق البشـرية، والبقـاء بالصـفات الإلهيـة، أو الفنـاء عـن الـذات والبقـاء بالـذات الإلهيـة، وهذه درجة أعلىٰ، وعليهـا أهـل التحقـق بالتصـوف، وفي كلامهـم: إشارات، وتلميحات، وتصريحات بهذا:

❁ النوري: "ليس التصوف رسما ولا علما، ولكنه خلق؛ لأنـه لو كان رسما لحصل بالمجاهدة، ولو كان علمـا لحصـل بـالتعليم، ولكنـه تخلـق بـأخلاق الله، ولـن تسـتطيع أن تقبـل علـىٰ الأخـلاق الإلهية بعلم أو رسم".[٢]

❁ الكاشاني: "التصوف هو: التخلق بالأخلاق الإلهية".[٣]

❁ الجرجاني: "إخماد الصفات البشرية".[٤]

---

(١) قوانين حكمة الإشراق ص٦٠.

(٢) عبد الحليم محمود وقضية التصوف: المدرسة الشاذلية ص٤٢٦.

(٣) اصطلاحات الصوفية ص١٦٤.

(٤) التعريفات ص٢٧.

❁ الغزالي: "فالذي يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية، حتىٰ قيل: تخلقوا بأخلاق الله".(١)

❁ ابن عربي: "فاعلم أن التصوف تشبيه بخالقنا لأنه خلق فانظر ترىٰ عجبا".(٢)

❁ الجيلي: "ولهذا أمرنا السيد الأواه فقال: تخلقوا بأخلاق الله؛ لتبرز أسراره المودعة في الهياكل الإنسانية، فيظهر بذلك علو العزة الربانية، ويعلم حق المرتبة الرحمانية".(٣)

❁ قال ابن الجوزي: "هذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين، ولما ظهر أوائلهم تكلموا فيه، وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة، حاصلها: أن التصوف عندهم: رياضة النفس، ومجاهدة الطبع، برده عن الأخلاق الرذيلة، وحمله علىٰ الأخلاق الجميلة من: الزهد، والحلم، والصبر، والأخلاق، والصدق. ثم ساق سنده إلىٰ الجنيد؛ أنه سئل عن التصوف، فقال: الخروج من كل خلق رديء، والدخول في كل خلق سني".(٤)

---

(١) الإحياء ٤/ ٣٢٤.
(٢) الفتوحات المكية ٢/ ٢٦٦.
(٣) الإنسان الكامل ٢/ ١٩.
(٤) تلبيس إبليس ص٤١٥.

والفناء في الصفات الإلهية لا يصح أن يكون بإطلاق، ففيها ما لا يمكن للعبد التخلق بها كالخلق والبرء والتصوير، وفيها ما لا يجوز التخلق بها كالجبروت والكبرياء، لكن البقية يمكن التخلق بها، فإذا حصل التفصيل صح القول، لكن المتصوفة لا يذكرونه إلا نادرا، والعادة أنهم يطلقون ولا يقيدون، وفيهم من ينحو نحو الفناء في الذات، وبذلك يلج ساحات: الحلول، والاتحاد، والوحدة.

فهذه المصطلحات مرتبطة كافتها بالفناء، وتوضيحه كما يلي:

❁ أولا: الوصول إلىٰ مرتبة الفناء يعني: اتحاد الفاني بمن فني فيه.

❁ ثانيا: الحلول قبول الفاني لتجلي الإلهية فيه.

❁ ثالثا: الفاني لا يرىٰ في الوجود إلا الله، بحكم الفناء.

يقول التفتازاني:" ويقصد بالفناء: الحالة النفسية التي يشعر معها الصوفي بذاته، كما يشعر أنه بقي مع حقيقة أسمىٰ مطلقة، هي: الله. عند صوفية المسلمين، أو الكلمة عند صوفي المسيحيين، أو براهما في تصوف البرهمية، وهكذا. وقد ينطلق بعض الصوفية إلىٰ القول بالاتحاد بهذه الحقيقة، أو أنها حلت فيهم، أو أن الوجود واحد لا كثرة فيه، ويعود بعضهم إلىٰ البقاء بعد الفناء، فيثبتون الاثنينية بين الله والعالم.[1]

---

(١) الموسوعة الفلسفية العربية ١/ ٢٥٩.

وللمتصوفة عبارات تؤكد معنىٰ الفناء: الحلولي، الاتحادي، الوحدوي. فمن ذلك:

❁ الشبلي: "وما افترقنا، وكيف نفترق، ولم يجر علينا حال الجمع أبدا".(١)

❁ أيضا: "الصوفي لا يرىٰ في الدارين مع الله غير الله".(٢)

❁ البسطامي: "سبحاني، سبحاني، ما أعظم سلطاني، ليس مثلي في السماء يوجد، ولا مثلي صفة في الأرض تعرف، أنا هو، وهو أنا، وهو هو".(٣)

❁ الحلاج زعم أن من تهذب بالطاعة، لا يزال يصفو عن البشرية، حتىٰ يحل فيه روح الله، الذي كان في عيسىٰ عليه السلام، فلا يريد شيئا إلا كان.(٤)

(١) طبقات الصوفية ص٣٤٢.
(٢) كشف المحجوب ١/ ٢٣٥.
(٣) تلبيس إبليس ص٣٤٥.
(٤) التصوف بين الحق والخلق ص٦١، دائرة معارف القرن العشرين ١٠/ ٣٥٥.

المصـدر

المصدر هو المنبع الأصيل الذي يستقي منه الصوفية علومهم، أما المورد الذي سبق ذكره، من: هندية، وفارسية، ويونانية، فذلك قنوات للتعريف والاتصال بهذا المصدر؛ ذلك أن المعارف في الفكر الصوفي إنما تتلقىٰ من الذات الإنسانية، لا من خارجها.

وفكرة مصدرية النفس الإنسانية للمعارف تأتي من الفهم الصوفي: لأصل الإنسان، وسبب وجوده، وكيفية عودته. فالمراحل ثلاثة:

أولا: كان للكون وجودٌ علميٌّ قبل وجوده العيني؛ أي: في الذهن قبل الخارج، وذلك حين كان وجوده في وجود الحق، فكل صور الكون وجد في الحق، ومن ذلك الإنسان الكامل، فلما أن أراد الحق أن يُعرف، أخرج تلك الموجودات العلمية إلىٰ الخارج، فتمثل عينها في الحس، فاكتسبت وجودا حقيقيا عينيا. وفي كلمة الحلاج توضيح لهذا: "تجلىٰ الحق لنفسه في الأزل قبل أن يخلق... ثم شاء أن يرىٰ ذلك الحب الذاتي ماثلا، في صورة خارجية يشاهدها ويخاطبها، فنظر في الأزل، وأخرج من العدم صورة من نفسه، لها كل صفاته وأسمائه".[١]

---

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص١٣٣.

ثانيـا: صـار الإنسـان بهـذا الوجـود مزيجـا مـن اللاهوتيـة والناسوتية، ففيه روح علوية وقبضة سفلية، فلا يزال يعمل على التخلص من هذه القبضة؛ ليكون علويا خالصا، فيرجع ليلتحق بمعدنه ومصدره الأول الذي كان متحدا به؛ لما وجد من النقص والشقاء في: الأحوال، والمعارف، والقدرات. بهذه المفارقة والممازجة. وطريقه في الرجوع هي المجاهدة والرياضة. للتخلص من آثار القبضة السفلية، فإذا فعل انتقل إلى الثالثة.

ثالثا: في حال نجاحه في الرياضة الروحية، يرجع إلى الكون الأول الذي كان فيه، وهو حالة الاتحاد بالمعدن الأول، الذي هو الإله بالمفهوم الديني، حيث تنتفي الاثنينية، وتثبت الأحدية، على ما كان قبل أن يكون للوجود تمثل عيني محسوس في الخارج، وهو ما يعبرون عنه بقولهم: "أن يرجع العبد كما لم يكن"، أو قولهم: "فناء من لم يكن، وبقاء من لم يزل". يروي السراج عن الجنيد أنه سئل عن التوحيد فقال: "معنى تضمحل فيه الرسوم، وتندرج العلوم، ويكون الله كما لم يزل".[1] وعن أبي سعيد الخراز: "ويبقى رؤية ما كان من الله لله، ويتفرد الواحد الصمد في أحديته، فلا يكون لغير الله مع الله فناء ولا بقاء".[2]

---

(١) اللمع ص٤٩.

(٢) التعرف ص١٤٨.

في هذه المرحلة تبدأ المعارف بالتدفق، حتىٰ يكون للعارف كل ما للحق من علوم، يكتسبها من لدن ذاته؛ التي رجعت نورانية روحانية إلهية خالصة، بعدما تخلصت من القبضة السفلية:

❁ أبو عثمان المغربي: "العارف تضيء له أنوار المعارف، فيبصر به عجائب الغيب".(١)

❁ الحسين بن منصور: "إذا بلغ العبد إلىٰ مقام المعرفة، أوحىٰ الله إليه بخواطره، وحرس سره: أن يسنح فيه غير خاطر الحق".(٢)

❁ الغزالي: "جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف، يتبوأ منها حيث يشاء، من غير حاجة أن يتحرك بجسمه وشخصه، فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة السموات والأرض، وكل عارف له مثلها من غير أن يضيق بعضهم علىٰ بعض أصلا، إلا أنهم يتفاوتون في سعة متنزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم".(٣)

---

(١) الرسالة ٢/ ٦٠١.
(٢) الرسالة ٢/ ٦٠١.
(٣) إحياء علوم الدين ٤/ ٣٢٧.

❁ ابن القيم: "الفناء الذي يشير إليه القوم ويعملون عليه: أن تذهب المحدثات في شهود العبد، وتغيب في أفق العدم، كما كانت قبل أن توجد، ويبقىٰ الحق تعالىٰ كما لم يزل، ثم تغيب صورة المشاهد له، فلا يبقىٰ له صورة ولا رسم، ثم يغيب شهوده أيضا، فلا يبقىٰ له شهود، ويصير الحق هو الذي يشاهد نفسه بنفسه، كما كان الأمر قبل إيجاد المكونات، وحقيقته: أن يفنىٰ من لم يكن ويبقىٰ من لم يزل".(١)

هذه النتيجة لم تحمل المتصوفة علىٰ مجرد الادعاء: أنهم وصلوا لكمال المعرفة بالغيب، كما للحق، بل ادعىٰ الصوفي أنه هو الحق؛ كما في قول البسطامي المتقدم: "إنني أنا الله"، وقول الحلاج: "أنا الحق، ما في الجبة إلا الله".(٢)

ومما ينبه إليه ههنا: أن الوصول إلىٰ مرتبة العارف يكون بانتصار الروح علىٰ البدن من طريقين:

❁ إما بالمجاهدة البدنية الشاقة، وهذه كانت شائعة في أوائل المتصوفة.

---

(١) مدارج السالكين ١/ ١٦٧.
(٢) التصوف في الإسلام ص٥١، رسالة حي بن يقظان ص٣-٤.

❁ أو بالرياضة الذهنية بطرق وضعوها، وهذا ما استقروا عليه، وينسب إلىٰ ابن عربي هذا التغيير، مع أن النوري عرف التصوف بقوله: "ليس التصوف رسما ولا علما؛ لأنه لو كان علما لحصل بالتعلم، ولو كان رسما لحصل بالمجاهدة، لكنه تخلق بأخلاق الله". فليس شرطا فيه: المجاهدة. والنوري في الطبقة الأولىٰ متوفىٰ سنة ٢٩٥هـ، فتكون هذه الفكرة متقدمة الظهور.(١)

وهكذا يظهر أن مصدر المعرفة في الفكر الصوفي لا يأتي من الخارج، بل من داخل النفس، لكنه لا يأتي بكل حال، بل بشرط المجاهدة المرسومة صوفيا: بدنية، أو ذهنية. هذا وليس له إلىٰ المعرفة من سبيل إلا من خلال الإنسان الكامل، الذي بلغ هذه الرتبة قبلا، فهنا طريقان:

الأول: وهو الأصل: تحصيل المعرفة من الداخل، فيعرف الإنسان نفسه كماله المطلق، بطرق المجاهدة والرياضة الآنفة، لينال المعارف كلها.

---

(١) عودة الواصل ص١٣٤، ١٣٥، ١٤٦، ٩٥، الصوفية الإسلام ص١٢٠، التصوف في الإسلام نيكلسون ١٧١-١٧٢، الإبريز ص٣١١-٣١٢، التصوف في الإسلام للصادق عرجون ص١٤٩.

الثاني: من الخارج، فيتعرف على "الإنسان الكامل"؛ لينال منه المعارف، فهذا معنى تشديد المتصوفة على ملازمة المريد لأستاذه للتعلم منه، وتعظيم مقام الشيخ والولي، ووصفه بالغوث والقطب، لكن هذا الأستاذ الكامل وسيلة لا غير ليتعرف على طريقة التحصيل من النفس.

في هذا السياق نفهم القول المشهور عنهم – وعن الفلاسفة –: "من عرف نفسه عرف ربه".(١)

❁ يقول ابن عربي: "فلما أوجد الكامل منا على الصورة، عرفه الكامل من نفسه، بما أعطاه من الكمال، كان العبد الكامل حقا".(٢)

هذا هو الذي حمل حملة الفكر الصوفي على إظهار استغنائهم عن التعلم وعلوم الوحي، وتصريحهم بإمكانية الاستغناء عن الرسل في معرفة الحقائق وأداء العبادات، كما في قصة حي بن يقظان لابن طفيل، وفي هذا يقولون:

---

(١) مقولة فلسفية صوفية موروثة عن الأفلاطونية، انظر: إيقاظ الهمم في شرح الحكم ص٦، عوارف المعارف ملحق بالإحياء ٥/ ٢٨٦، الموسوعة الفلسفية العربية ٢/ ١١٥.

(٢) الفتوحات المكية ٣/ ٤٠٩.

❁ الغزالـي: "وظهـر لـي: أن أخـص خواصـهم مـا لا يمكـن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق وتبدل الصفات".[١]

❁ ابن عربي: "ورب حديث يكون صحيحا عن طريق رواته، حصل لهذا الكاشف الذي عاين هذا المظهر، فسأل النبي ﷺ عن هذا الحديث فأنكره، وقال: لم أقله، ولا حكمت به. فيعلم ضعفه فيترك العمل به علىٰ بينة من ربه، وإن كان قد عمل به أهل النقل لصحة طريقه، وهو في نفس الأمر ليس كذلك".[٢]

❁ وقولهم: "أخذتم علمكم ميتا عن ميت، ونحن أخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت".[٣]

وإذا قيل: فكيف نصنع بأقوالهم – كالجنيد – في التشديد علىٰ اتباع الكتاب والسنة؟

قيل: ذاك يخرج على وجهين:

الأول: أن هـؤلاء صـادقون في قـولهم هـذا، لكـنهم اغـتروا بالتصـوف، فظنـوا أنـه يسـاعدهم علىٰ ذلـك، ومـا غـرهم إلا قلـة علمهم بالكتاب والسنة ومنهج السلف.

---

(١) المنقذ من الضلال ص٤٣.

(٢) الفتوحات ١/ ١٥٠.

(٣) الفتوحات ١/ ١٩٨، الطبقات الكبرىٰ ١/ ٥.

الثاني: أنهم يؤمنون بذلك، لكن فيما يتعلق بالعامة، فإن عليهم أن يتمسكوا بالكتاب والسنة، فإذا بلغوا اليقين، ووصلوا مرتبة الأزل، فليس عليهم طلب المعرفة منهما.

وهذا سبب تقسيمهم المراتب إلىٰ: عامة، وخاصة، وخاصة الخاصة. وإجماعهم علىٰ ذلك، قال ابن عجيبة: "أما واضع هذا العلم فهو النبي ﷺ، علمه الله بالوحي والإلهام، فنزل جبريل عليه السلام أولا بالشريعة، فلما تقررت نزل ثانيا بالحقيقة، فخص بها بعضا دون بعض، وأول من تكلم فيه وأظهره: سيدنا علي كرم الله وجه، وأخذه عنه الحسن البصري، وعن الحسن حبيب العجمي، وعنه داود الطائي، وعنه معروف الكرخي، وعنه سري بن المغلس السقطي، وعنه إمام الطريقة الجنيد".[1]

هذا المصدر يفتقر إلىٰ قناة للاتصال به والاستمداد منه، وقد حدد المتصوفة هذه القناة في: الكشف. فالذي يوصل إلىٰ المعارف اللدنية هو: الكشف. وقد اتخذوا له وسائل للتحقق به؛ فمنها: رؤية النبي يقظة، ومناما، ورؤية الخضر، والوجد، والذوق، والمشاهدة، والمعاينة. كل هذه وسواها مصطلحات صوفية، هي وسائل لتحصيل الكشف.

---

(١) إيقاظ الهمم في شرح الحكم ص٦.

زادوا عليهـا الوسـائل المصـححة شـرعا أيضـا: كالرؤيـا، والفراسـة، والإلهـام ونحوهـا؛ لإثبـات صـحة طريقـة الكشـف لتحصـيل المعـارف، ومـع أن هـذه المصـطلحات الشـرعية هـي في ذاتها صحيحة، لكنها لم تبلغ في درجة كشفها القدر المطلق الذي ذهب إليه المتصوفة، بل كشوفات جزئية محدودة، تدور حول المبشرات، لا يستفاد منها حكم ولا خبر جازم، فهذا فرق ما بين الكشف الصوفي والشرعي، فرق في:

- الإطلاق.. والتقييد.
- الكلي.. والجزئي.
- الخبر الجازم.. والبشارة.
- الحكم اللازم.. والاستئناس.

فـالأول مـن الأوصـاف جعلـوه – تكلفـا وخلافـا للشـرع – للكشف الصوفي، وحقيقة الكشف الشرعي هو الثاني منها، وهو ما دلت عليه الأدلة.[1] وإنما المصدر الوحيد للاستدلال الشرعي هو الوحي بقسميه: الكتاب، والسنة.

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٧-٥١، ٥٨.

المنهـج

المنهج هو: الطريقة التي بها تستخرج الأحكام من الأخبار. أما المصدر فهو: المنبع الذي يؤخذ منه العلم الديني؛ خبرا وحكما. وبعد ثبوت المصدر يأتي المنهج؛ كيفية الاستدلال بهذا المصدر علىٰ المسائل: باستخراج الأحكام، وفهم الأخبار.

فالمصدر عند أهل السنة هو: الكتاب، والسنة. والمنهج: تقديمهما علىٰ العقل، والكشف، والمصلحة وغير ذلك بالتسليم والإذعان، والفهم لهما علىٰ ما فهم السلف من القرون المفضلة، ثم وراء ذلك تفصيل يدور في فلكه كاجتناب كل تفسير يعود عليهما بالنقض.

أما عند المتكلمين، فالمنهج تقديم العقل علىٰ النقل عند التعارض، والتسلط بأدوات فلسفية كلامية علىٰ النص الشرعي لتطويعه للعقل الكلامي الفلسفي الكلامي خاصة، مثل: التأويل، والتفويض، والمجاز، وخبر الآحاد.

وعند المتصوفة منهج آخر للاستدلال، يأخذ من كل مذهب بطرف، فيكمله بطرف من عنده، فقد قالوا بالكشف قناة للاتصال بمصدر المعرفة، ثم هذا الكشف له وسائل عدة، فمنها: رؤية النبي يقظة، أو مناما، والمشاهدة، والمعاينة، ولقيا الخضر، والذوق، والوجد، والفراسة.. إلخ.

كلها تأخذ إلىٰ مصدر المعرفة؛ للاتصال بالحقيقة المطلقة وتحصيل المعارف منها. أما وقد تبين غرابة وأجنبية هذا المصدر عن مصدر التشريع الإسلامي، فكيف أمكن الجمع بينه وبين دعوىٰ إسلامية التصوف؟

ما فعله الفلاسفة والمتكلمون فعله المتصوفة، من غير شعور أو إقرار بالتحريف! فذهب هؤلاء إلىٰ الإقرار بمصدرية ومرجعية الكتاب والسنة، بل والسلف الصالح أيضا، لكن حقيقة الأمر: أنهم تسلطوا علىٰ هذه المصدرية المباركة بمنهج يبطله فلا يحققه، بل يحقق المصدرية الصوفية: المعارف اللدنية. فاتخذوا لذلك طريقا أساسا هو:

❁ تقسيم الدين إلىٰ: حقيقة، وشريعة. فالأولىٰ باطنة، وهي للخاصة، والأخرىٰ ظاهرة، وهي للعامة. فكل ما في المصدر الشرعي من أحكام ومعانٍ هي صحيحة في نفسها، لكنها ظواهر خوطب بها العامة، أما المعنىٰ الباطن فهو للخاصة، الذين عرفوا الحقيقة، واتصلوا بها، فإذا ما أرادوا الحقيقة والباطن، فطريقه الكشف بوسائله المذكورة.

فمنهج الاستدلال لدىٰ الصوفية - الذي هو طريق لفهم النصوص الشرعية - يقوم علىٰ هذا التقسيم، فتفهم النصوص علىٰ وجهها المراد - في قانونهم - من طريق المعنىٰ الباطن، الذي هو حقيقة عندهم، والاتصال بهذه الحقيقة الباطنة يكون من طريق: الكشف بأدواته ووسائله.

فإما كشف يتبين به عدم ثبوت النص النبوي، ولو أثبت سنده علماء الحديث والجرح والتعديل، كما نطق بذلك ابن عربي في بعض كلامه.

❁ قال ابن عربي: "ورب حديث يكون صحيحا عن طريق رواته، حصل لهذا الكاشف الذي عاين هذا المظهر، فسأل النبي ﷺ عن هذا الحديث، فأنكره وقال: لم أقله، ولا حكمت به، فيعلم ضعفه، فيترك العمل به على بينة من ربه، وإن كان قد عمل به أهل النقل لصحة طريقه، وهو في نفس الأمر ليس كذلك".[١]

❁ وقول قائلهم: "أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لايموت".[٢]

❁ **وقول الشبلي:**

إذا طالبوني بعلم الورق برزت عليهم بعلم الخرق[٣]

وإما كشف يتبين به معنى للنص، لم يذكره علماء الظاهر (=الشريعة). وليس له سند من: كتاب، أو سنة، أو لغة، أو كلام الصحابة.

---

(١) الفتوحات المكية ١/ ١٥٠.
(٢) تقدم (٨٤).
(٣) تلبيس إبليس (٧٤١،٧٦٠).

وفي هذا يستعمل ما يسمىٰ بـ"التفسير الإشاري"، وهو في كثير من أشكاله تأويل "باطني"؛ لعدم تحقق شروط "التفسير الإشاري" فيه، فالتأويل أداة يستعمله الصوفية لتحريف معنىٰ النصوص الشرعية إلىٰ معان صوفية، وفي هذا يتفقون مع: الفلاسفة، والمتكلمين. وطائفة من الفلاسفة والمتكلمين هم صوفية، والعكس صحيح أيضا.

أو كشف يتنزل به حكم وخبر لم يرد في النص؛ فيه أمر ونهي، وفيه خبر عن غيب لا يعرف إلا من طريق مخبر، والكشف هو الموصل لهذا الخبر والمخبر.

❁ **يقول ابن عربي**: "أما بعد: فإني رأيت رسول الله ﷺ في مبشرة أريتها في العشر الآخر من محرم، سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق، وبيده ﷺ كتاب، فقال لي: هذا فصوص الحكم؛ خذه واخرج به إلىٰ الناس ينتفعون به. فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر منا كما أمرنا. فحققت الأمنية، وأخلصت النية، وجردت القصد والهمة إلىٰ إبراز هذا الكتاب، كما حده لي رسول الله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان، وسألت الله تعالىٰ أن يجعل فيه وفي جميع أحوالي من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان..

وأرجو أن يكون الحق لما سمع دعائي، قد أجاب ندائي، فما ألقي إلا ما يلقىٰ إلي، ولا أنزل في هذا المسطور إلا ما ينزل علي، ولست بنبي رسول، ولكن وارث، ولآخرتي حارث".[١]

❁ الجيلي يقول عن كتابه "الإنسان الكامل": "فأمرني الحق بإبرازه، بين تصريحه وإلغازه، ووعدني بعموم الانتفاع، فقلت: طوعا للأمر المطاع، وابتدأت في تأليفه، متكلا علىٰ الحق في تعريفه".[٢]

(١) الفصوص ١/ ٤٧.
(٢) الإنسان الكامل ١/ ٦.

المعتقد

ربما كان من المفيد أن ندرس عقيدة القوم بشكل مقتضب، فإن ذلك مما يعين علىٰ معرفة حقيقة التصوف، ولنأخذ كتابين هما من أقدم كتب الصوفية وهما: كتاب " التعرف لمذهب أهل التصوف " للكلاباذي، وكتاب " الرسالة" للقشيري. فقد توسع الكلاباذي في ذكر اعتقادات القوم، وهي في أغلبها موافقة لاعتقاد السلف أهل السنة والجماعة، لكنها لم تخل من آراء المتكلمين، يتبين ذلك:

❁ من وصفه للذات الإلهية بالصفات السلبية، حيث يقول:"ليس بجسم ولا شبح ولا صورة ....".[١]

❁ يورد نصا عن الحلاج في الصفات السلبية، كما أورده القشيري أيضا: " قال بعض الكبراء في كلام له .. ".[٢]

ووصف الله تعالىٰ بالصفات السلبية طريقة جرىٰ عليها المتكلمون، وهي تخالف طريقة السلف رضوان الله عليهم الذين يتبعون المنهج القرآني الذي يقوم علىٰ النفي المجمل والإثبات المفصل.[٣]

---

(١) التعرف ص٤٥.

(٢) التعرف ص٤٦، وانظر: الرسالة ١/ ٣٢، وإذا نظرت في هذين النصين، عرفت أن المقصود هو الحلاج.

(٣) التدمرية ص٥٧.

وهـو في العمـوم يثبـت جميـع الأسـماء والصـفات، يقـول: "وأجمعوا علىٰ أن صفات الله علىٰ الحقيقة هو بها موصوف".[١]

ومما وافق به أهل الكلام: قوله بأن كلام الله تعالىٰ ليس بحرف ولا صوت، وأنه لم يزل آمرا وناهيا، مخبرا واعدا موعدا حامدا ذاما.[٢] والباقلاني المتكلم ينقل عن الجنيد الصوفي قوله: " جلت ذاته عن الحدود، وجل كلامه عن الحروف، فلا حد لذاته، ولا حروف لكلامه".[٣]

وخلافا للكلاباذي يذكر القشيري عقيدة الصوفية في الصفات: فيعدد سبع صفات، لكنه يوافقه في أن كلام الله بلا حرف ولا صوت، وينقل قول الشبلي في ذلك.[٤]

وكلاهما يتفقان علىٰ نفي العلة من أفعال الله تعالىٰ:

- يقول الكلاباذي:" وأجمعوا أنه لا يفعل الأشياء لعلة".[٥]
- وينقل القشيري عن ذي النون:" ولا علة لصنعه".[٦]

---

(١) التعرف ص٤٧.
(٢) التعرف.
(٣) الإنصاف ١٤٩، ١٥٢.
(٤) الرسالة ١/ ٣٠،٤٩.
(٥) التعرف ص٩٦.
(٦) الرسالة ١/ ٣٥.

والقشيري يقرر عقيدة الأشاعرة في الغالب، فالتوحيد عندهم علم وإقرار بأن الله فرد في ذاته وأفعاله:

❁ قال رويم: "أول فرض فرضه الله على خلقه المعرفة".[١]

❁ وقال الجنيد: "التوحيد: علمك وإقرارك بأن الله فرد في أزليته لا ثاني له، ولا شيء يفعل فعله".[٢]

كما أنهم ينفون علو الله تعالى واستواءه على العرش، وينقلون عن:

❁ الحلاج قوله: " ومن آواه محل، أدركه أين؟ ".[٣]

❁ وسئل الشبلي عن العرش فقال: "الرحمن لم يزل، والعرش محدث، والعرش بالمكان استوى".[٤]

❁ وفي قصة أبي عثمان المغربي مع خادمه حيث كان يعلمه أن الله ليس في مكان، بل يقول: "كنت أعتقد شيئا من حديث الجهة (أي: أن الله على العرش)، فلما قدمت بغداد زال ذلك عن قلبي، فكتبت إلى أصحابنا بمكة أني أسلمت الآن إسلاما جديدا".[٥]

---

(١) الرسالة ١/ ٣٠.
(٢) الرسالة ١/ ٣٥.
(٣) الرسالة ١/ ٣٢.
(٤) الرسالة ١/ ٤٤.
(٥) الرسالة ١/ ٣٧-٣٨.

وفي الإيمـان يوافـق القشـيري الأشـعرية،[١] مخالفـا بـذلك الكلاباذي الذي يوافق السلف:

❁ في التعـرف: " الإيمـان عنـد الجمهـور: قـول وعمـل ونيـة، ومعنىٰ النية التصديق".[٢]

❁ وفي الرسالة:" الإيمان: تصديق القلوب".[٣]

وفي القـدر يقـرر القشـيري عقيـدة الجبريـة مـن خـلال أقـوال المتصوفة:

❁ قال أبـو عثمـان المغربي: "الخلـق قوالـب وأشباح تجـري عليهم أحكام القدرة الإلهية".

❁ وقـال الواسـطي: "لمـا قامـت الأرواح والأجسـاد بـالله وظهرتا به لا بذواتها، كـذلك قامـت الخطـرات والحركـات بـالله لا بـذواتها، إذ إن الحركـات والخطـرات فـروع للأجسـاد والأرواح".[٤]

مخالفا بذلك الكلاباذي الذي يوافق السلف في هذا، قال:

❁ " أجمعوا أن الله تعالىٰ خالق لأفعال العباد كلها".

---

(١) انظر قول الأشعري في الملل والنحل ص١٠١.
(٢) ص٩٤.
(٣) ١/ ٣٥.
(٤) الرسالة ١/ ٣٨.

❁ وقال:" وأجمعوا أن لهم أفعالا واكتسابا على الحقيقة، وأنهم بها مثابون، وعليها معاقبون... وأجمعوا أنهم مختارون لاكتسابهم، مريدون له، وليسوا بمحمولين عليه، ولا مجبرين فيه، ولا مستكرهين له".[١]

ويبدو من خلال عرض ما في هذين الكتابين، أن عقيدة الصوفية تختلف باختلاف المنتمين إليها، فمن كان أشعريا جعل أشعريته هي عقيدة الصوفية، ومن كان سنيا جعل عقيدتهم هي عقيدة أهل السنة، والمعتزلي كذلك، المهم أن هناك جملة أفكار يجب اعتناقها والعمل بها، ثم بعد ذلك لا مانع من التدين بأي دين كان، قال ابن عربي في:" ترجمان الأشواق"[٢]:

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

❁ **يقول أحمد أمين**: " فالتصوف نزعة من النزعات، لا فرقة مستقلة كالمعتزلة والشيعة وأهل السنة، ولذلك يصح أن يكون الرجل معتزليا وصوفيا، أو شيعيا وصوفيا، أو سنيا وصوفيا، بل قد يكون نصرانيا أو يهوديا أو بوذيا وهو متصوف".[٣]

❁ ويذكر الدكتور عمر فروخ في كتابه "التصوف في الإسلام" عن سهل التستري أنه كان أشعريا، وأن الشبلي كان يميل إلى الاعتزال، وأن الشيخ عدي بن مسافر أميل إلى الأشعرية.[٤]

---

(١) التعرف ص٥٨، ٦١.
(٢) ص٤٢.
(٣) ظهر الإسلام ٤/ ١٤٩.
(٤) ص ٦٦، ٧٠، ٧٨.

فالصوفية لا يهمهم الاجتماع علىٰ عقيدة واحدة، بل يرون ذلك سببا للهلاك، قال رويم:

❁ " لا يزال الصوفية بخير ما تنافروا، فإن اصطلحوا هلكوا ".[١]

لكن الذي يبدو أن الصوفية أكثر التصاقا بالأشعرية:

❁ فهذا القشيري والغزالي أشعريان.

❁ والكلاباذي ذكر طرفا من اعتقاد الأشعرية.

❁ والجيلي يوافق في إثبات صفات سبع.[٢]

❁ والشعراني لم يسلم من تلك الآراء الكلامية في ذكره لعقيدة الصوفية.[٣]

❁ وقد قطع أبو علي المعبري النزاع في المسألة فقال: "أما عقيدتهم فعقيدة شيخ السنة أبي الحسن الأشعري وأصحابه، من فاتحتها إلىٰ خاتمتها".[٤]

---

(١) التعرف ص٥٨، ٦١.

(٢) الإنسان الكامل ١/ ٧٣-٨٧.

(٣) الأنوار القدسية في معرفة القواعد الصوفية ص١٣،١١.

(٤) سراج القلوب وعلاج الذنوب لأبي علي المعبري، معلق في حاشية قوت القلوب لأبي طالب ١/ ٢٩٦.

❁ **ومما يؤكد ذلك**: أن المتكلمين يستشهدون بأقوال هؤلاء الصوفية، كما صنع الباقلاني حين استشهد بكلام الشبلي عن العرش، وبكلام الجنيد وغيره عن التوحيد والحرف والصوت، مما يدل علىٰ دخول أئمة التصوف في علم الكلام.(١)

❁ والأشعري نفسه تلمذ علىٰ أئمة التصوف، كما في ترجمته في "طبقات الشافعية" للسبكي.

وفي هذا المقام لابد أن نذكر برأي شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة، فإنه يرىٰ أن أئمة التصوف الأولين كانوا علىٰ اعتقاد السلف، بخاصة فيما يتعلق بذم الكلام، ويذكر كتابين في ذلك: "ذم الكلام" للسلمي والهروي، وأن الصحيح الصريح المحفوظ عنهم غير ما ذكره القشيري في رسالته، ثم إنه طعن في نقولاته عنهم، وبدعه ووصفه بأنه صاحب هوىٰ.

وقد ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ عنهم آثارا في ذم الكلام، وطعن في فهم القشيري لكلامهم، وأطال في الاعتذار لشيء من كلماتهم الموهمة، وحملها علىٰ أحسن المحامل.(٢)

---

(١) انظر: الإنصاف للباقلاني ص٤٧، ١٥٢،٦٥، وانظر ص ١٩٦،حاشية (٤٥)، ففيه استشهاد الباقلاني المتكلم بكلام الجنيد الصوفي.
(٢) الاستقامة لابن تيمية ١/ ٨٢ ـ٢١٥.

كذلك في نقل "الحموية" لنص الاعتقاد في الأسماء والصفات لابن خفيف الشيرازي، وهو علىٰ نسق اعتقاد السلف، كذلك عن عمرو بن عثمان المكي نقل اعتقادا، ثم عن الجيلاني عبد القادر، والحارث المحاسبي وأبي نعيم، في مسألة العلو والاستواء علىٰ العرش وغيرها، كل هؤلاء نقل عنهم اعتقاد السلف في الصفات وغيرها، ونقل عن المحاسبي وابن خفيف ردهما علىٰ انحراف الصوفية في: الحلول، وسقوط التكاليف، والعشق، والسماع، والرؤية. وفي هذا تأكيد علىٰ أن جمعا من المتقدمين منهم كانوا علىٰ طريقة سلفية، لم يكن فيهم أشعري ولا معتزلي، وإن كان فيهم الحلولية، وكيف يكون فيهم أشعري، والتصوف بدأ قبل الأشعري نفسه، الذي توفي سنة ٣٢٤هـ، فأولئك كانوا زهادا خلطوا بين التصوف والسنة.

سادسا: السلوك

"قيل: إن بعض الصالحين كتب إلىٰ أخ له يستدعيه إلىٰ الغزو، فكتب إليه: يا أخي! كل الثغور مجتمعة لي في بيت واحد، والباب مردود علي. فكتب إليه أخوه: لو كان الناس كلهم لزموا ما لزمته، اختلت أمور المسلمين وغلب الكفار، فلا بد من الغزو والجهاد، فكتب إليه: يا أخي! لو لزم الناس ما أنا عليه، وقالوا في زواياهم علىٰ سجاداتهم: الله أكبر، انهدم سور قسطنطينية. وقال بعض الحكماء: ارتفاع الأصوات في بيوت العبادات بحسن النيات، وصفاء الطويات، يحل ما عقدته الأفلاك الدائرات".[1]

للمجاهدة الصوفية معنىٰ خاص كما في القصة، وله غرض يرويه أبو علي الدقاق: "من زين ظاهره بالمجاهدة، حسن الله سرائره بالمشاهدة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ﴾ [العنكبوت:٦٩]".

وهي علىٰ قسمين: جهد العوام في توفية الأعمال، وجهد الخواص إلىٰ تصفية الأحوال.[2]

---

(١) عوارف المعارف ملحق بالإحياء ٥/ ١٠٧.

(٢) الرسالة للقشيري ١/ ٢٨٩-٢٩١.

فجهاد النفس من أجل القيام بالعبادات الشرعية الظاهرة هو: جهاد العوام، وأما جهاد الخواص فهو يتعدىٰ ذلك إلىٰ تصفية أحوال النفس والقلب.

وللمجاهدة أركان أربعة، هي: **الزهد، والشيخ، والإخلاص، والتشبه بالإله**. أفدناها من: عمدة السالكين للغزالي، وقوت القلوب للمكي، ورسائل السلمي، والرسالة للقشيري.

وننبه إلىٰ أن ذكر الزهد هنا، لا ينقض ما سبق: من عدم اشتراط الزهد للتصوف. فالشرطية المنفية هنا: هي الركنية. فليس الزهد ركنا في التصوف، بل التصوف حاصل من دونه، وهذا ما اتضح في التصوف الرياضي الذهني، الذي أكده ابن عربي، ومن أوجبه من المتصوفة فإنما أوجبه بحسب فهمه للتصوف، لا أن التصوف في حقيقته يتطلبه، ونتذكر هنا قول السهروردي، وقد سبق:

"التصوف غير الفقر، والزهد غير الفقر، والتصوف غير الزهد، فالتصوف اسم جامع لمعاني الفقر، ومعاني الزهد، مع مزيد أوصاف وإضافات لا يكون بدونها الرجل صوفيا، وإن كان زاهدا فقيرا".[1]

(١) عوارف المعارف ملحق بالإحياء له ٥/ ٧٩.

الأول: الزهد

الزهـد عنـد المتصـوفة يقـوم علـىٰ: الجـوع، والفقـر، وتـرك التكسب، والعزلة، والعزوبة، وترك العلم. وهذا تعريف يخالف ما قاله السلف: "الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة". قال ابن القيم: "سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: الزهد: تـرك مـا لا ينفـع في الآخـرة، والـورع: تـرك مـا تخـاف ضـرره في الآخرة".[1]

فأمـا الجـوع، وقـد جـاع النبـي ﷺ وأصـحابه، لكـن مـن غيـر اختيـار، فيقـول عنـه القشـيري: "بـاب الجـوع وتـرك الشـهوة: كـان الجوع من صفات القوم، وهو أحد أركان المجاهدة، فإن أرباب السلوك تدرجوا إلىٰ اعتياد الجوع، والإمساك عن الأكل، ووجدوا ينابيع الحكمة".

فهذا سهل يقال: إن كان لا يأكل إلا كل خمسة عشر يوما، وفي رمضان لا يأكل إلا إذا رأىٰ الهلال، وأبو تراب النخشبي يخرج من البصـرة إلـىٰ مكـة، فـلا يأكـل إلا أكلتـين، وبعضـهم يحـرم نفسـه الحلال لسنوات.

❁ أبـو عثمـان المغربـي: "الربـاني لا يأكـل في أربعـين يومـا، والصمداني في ثمانين يوما".

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ١٠.

❁ الروذباري:"إذا قال الصوفي بعد خمسة أيام: أنا جائع، فألزموه السوق، وأمروه بالكسب"

❁ الداراني: "الجوع مفتاح الآخرة".(١)

❁ بعضهم: "أكلُ درهم من اللحم يقسي القلب أربعين يوما".(٢)

ويذكر القشيري أنواعا من العقوبات وقعت علىٰ بعض السالكين لما تمنوا بعض الأطعمة.

فالجوع كان سمة بارزة فيهم حتىٰ سموا في الشام بـ "الجوعية". لكن هذا تحول لاحقا، حتىٰ لم يعد فيهم من يسلك إلا النقيض من ذلك؛ بالمكث في الأربطة للطعام والشراب، حتىٰ قيل: "آكل من صوفي".(٣)

وأما ترك الكسب، فهو مخالف لسنن الأنبياء، ويقولون فيه، كما نقله القشيري في "الرسالة":(٤)

❁ الدقاق: "الزهد: أن تترك الدنيا كما هي، لا تقول: أبني بها رباطا، أو أعمر مسجدا".

---

(١) الرسالة ١/ ٣٧٢-٣٧٩.

(٢) تلبيس إبليس ص٢١٠.

(٣) ترتيب المدارك ٤/ ٥٤، تلبيس إبليس ص١٧٥، إغاثة اللهفان ١/ ٢٣١.

(٤) ١/ ٣٢٦-٣٢٨.

❁ السلمي: "الزهد ألا يدخر شيئا مما يكون عنده".[١]

❁ الغزالي: "علامة فنائك عنك وعن هواك: ترك التكسب".[٢]

وأما ترك التعلم والزواج، ومخالفة السنة فيهما ظاهرة، فيقولون فيهما:

الداراني: "ثلاث من طلبهن فقد ركن إلىٰ الدنيا: من طلب معاشا، أو تزوج امرأة، أو كتب حديثا، وقال: ما رأيت أحدا من أصحابنا تزوج فثبت علىٰ مرتبته".[٣]

البسطامي: "عملت في المجاهدة ثلاثين عاما، فما وجدت شيئا أشد علي من العلم ومتابعته".[٤]

ينقل الشعراني في "طبقاته" عن الجنيد: "المريد الصادق غني عن علم العلماء".[٥] وقد ورد عنه أيضا: "علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، ولم يتفقه، لا يقتدىٰ به".[٦]

---

(١) تسعة كتب في أصول التصوف والزهد ص٤٠٥.
(٢) عمدة السالكين ص١٧.
(٣) عوارف المعارف ملحق بالإحياء ٥/ ١٣٨.
(٤) الرسالة ١/ ٨٨.
(٥) ١/ ٨٥.
(٦) الحلية ١٠/ ٢٥٥.

السلمي: "ولا يتزوج إلا إذا خاف علىٰ نفسه هتك حرمة".[١]

الغزالـي: "اعلـم: أن ميـل أهـل التصـوف إلـىٰ الإلهاميـة دون التعليمية؛ ولذلك لم يتعلموا، ولم يحرصوا علىٰ دراسة العلم، بـل قـالوا: الطريـق تقـديم المجاهـدات والإقبـال علـىٰ الله، ويقطـع الإنسـان همـه مـن المـال والولـد والعلـم، ويقتصـر علـىٰ الفـرائض والرواتب، ولا يقرن همه بقراءة قرآن ولا يكتب حديثا".[٢]

وقال: "فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألـذ عنـده وأطيـب من مناجاة الله: كيف تصح محبته؟!".[٣]

وعـن العزلـة والسـياحة، فقـد سـكنوا في الكهـوف، وسـاحوا في البراري حتىٰ سموا بـ "الشكفتية" مـن الشكفت وهـو: الكهـف في لسان فارس كما تقدم، ومن أقوالهم في هذا:

أبو سعيد الخراز: "قطعت البادية مرارا علىٰ التجريد".[٤]

وكثيـر مـن نصوصـهم في هـذا يمكـن تأويلـه بالعزلـة والسـياحة المشروعة، فليست صريحة في الجنوح عن السنة، لكن ممارسـات الصوفية هي التي تكشف قدر ما فيها من خطأ، وقد حكىٰ الغزالـي في "الإحياء" كثيرا من قصص السائحين والمعتزلين.[٥]

---

(١) تسعة كتب في أصول الزهد والتصوف ص٤٠٥.

(٢) تلبيس إبليس ص٣٢٣.

(٣) إحياء علوم الدين ٤/ ٣٥١.

(٤) المقدمـة في التصـوف، ضـمن تسـعة كتـب في أصـول التصـوف والزهـد ص٣٢٤.

(٥) ٤/ ٣٤٣.

ثانيًا: الشيـخ

أكثر أربـاب التصـوف الإشـادة بشـأن الشيخ، ووجـوب اقتـداء المريـد بـه، واتبـاع أمـره وطاعتـه طاعـة مطلقـة، موقعـة في الغلـو، والطاعة في المعصية، فلهم في هذا كثير من الألفاظ، فمن ذلك:

❁ السلمي: "مـن لـم يلحقـه نظـر شـيخ وشـفقته لا يجـيء منـه شيء".[١]

❁ القشيري:"من لم يكن له أستاذ لم يفلح أبدا، هذا أبـو يزيـد يقول: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان".[٢]

❁ القشـيري: "ومـن شـرطه: ألا يكـون بقلبـه اعـتراض علـىٰ شيخه... ثم يجب حفظ سـره، حتىٰ زره إلا عـن شـيخه، ولـو كـتم نفسا من أنفاسه عن شيخه، فقد خانـه في حـق صـحبته، ولـو وقعـت له مخالفة فيما أشار عليه شيخه، فيجب أن يقـر بـذلك بـين يديـه في الوقت، ثم يستسلم لما يحكم به عليه شيخه عقوبة له".[٣]

---

(١) تسعة كتب ص١٦٠.
(٢) الرسالة ٢/ ٧٣٥.
(٣) الرسالة ٢/ ٧٣٦-٧٣٧.

ثم إن لهم اعتقادا غريبا في الشيخ – الحكيم – وهو: أنه إذا نظر إلىٰ المريد، ورأىٰ خلوه من الأسباب والأحوال، نظر إليه نظر شفقة، ورحمة، ورعاية. فيدله في كل وقت علىٰ ما يناسبه، فيسهل عليه سلوك الطريق لقوة دليله – الشيخ – لا لقوة نفسه؛ لأن الدليل يحمل عنه ببركة نظره إليه شفقة أثقال المؤن، وبقدر نظره يفتح الله عليه.

ويستدلون لهذا بأن رسول الله ﷺ كان ينظر إلىٰ أبي بكر، فيؤثر فيه ببركته حتىٰ أنفق جميع ماله، ولما كان نظره إلىٰ عمر دون ذلك أنفق نصف ماله، وسعد دون ذلك، فأنفق ثلث ماله، فكل أنفق بحسب ما وافاه من نظر الرسول؛ وذلك لإشرافه علىٰ أحوالهم، فكذلك الحكيم – الشيخ – إذا نظر إلىٰ المريدين؛ لقوله ﷺ: (طوبىٰ لمن رآني، ولمن رأىٰ من رآني).(١)

والشيخ فوق ذلك، هو الواسطة بين الله والمريدين، وهو أمين الإلهام، يقول: السهروردي:

❁ "كلام الشيخ بالحق من الحق، فالشيخ للمريدين أمين الإلهام، كما أن جبريل أمين الوحي".(٢)

---

(١) المستدرك ٣/ ٨٦، السلسلة الصحيحة رقم ١٢٥٤.

(٢) عوارف المعارف ملحق بالإحياء له ٥/ ٢٦٥.

وفي هذا التبجيل سر، يشير إليه الجيلي: أن الشيخ تمثلت فيه الحقيقة المحمدية، أو النور المحمدي، وذلك أنه ﷺ – بحسب زعمهم – يظهر في صور الأولياء، في كل زمان ومكان، فمعاملة المريد حينئذ مع النبي ﷺ لا الشيخ، يقول:

❁ "وسر هذا تمكنه ﷺ من التصور بكل صورة... ألا تراه لما ظهر في صورة الشبلي رضي الله عنه قال الشبلي لتلميذه: أشهد أني رسول الله. وكان التلميذ صاحب كشف فعرفه، فقال: أشهد أنك رسول الله. ... إذا كشف لك عن الحقيقة المحمدية؛ أنها متجلية في صورة من صور الآدميين... ويجب عليك أن تتأدب مع صاحب تلك الصورة تأدبك مع محمد ﷺ... وقد جرت سنته ﷺ: أنه لا يزال يتصور في كل زمان بصورة أكملهم؛ ليعلي شأنهم، ويقيم ميلانهم، فهم خلفاؤه في الظاهر، وهو في الباطن حقيقتهم".[1]

(١)الإنسان الكامل ٢/ ٧٤-٧٥.

ثالثـا: الإخـلاص

الإخـلاص علامـة صـحة الطريـق، ومعنـاه: الفنـاء عـن رؤيـة: الخلق، والعوض.

وسبيله: إذلال النفس وامتهانها، حتىٰ يكونا سجية، تلزمه لـزوم الزبالـة للزبـال، والكسـاحة للكسـاح، وقـد سـيطرت علـيهم هـذه الفكرة حتىٰ سـلكوا لأجلهـا سـبلا عجيبـة، فمـن ذلـك: أن بعضـهم كـان يسـتذل ويمـتهن نفسـه حتـىٰ لأهـل الذمـة؛ يسـخرون منـه، ويحملونه الأشياء، والصبيان يولعـون بـه. وبعضـهم يسـرق عمـدا؛ ليشتهر بـ" لـص الحمـام". يقـول الغزالـي: فهكـذا كـانوا يروضـون أنفسهم حتىٰ يخلصهم الله من النظر إلىٰ الخلق، ثـم مـن النظـر إلـىٰ النفس".[١]

وقد أطلق علىٰ هـؤلاء اسـم "الملامتيـة"، وزعـم الصـوفية أنهـا دواء للمعتل؛ الذي ابتلي بالنظر إلىٰ نفسه بإعجاب، ولـيس طريقـا عاما لهم:

❁ أبو طالب المكي: "وهذا الذي ذكـره دواء مـن اعتـل بنظـره إلىٰ نفسه، ثم سقم بنظر النـاس إليـه، لزمـه سـد نظـره إلـىٰ نظـرهم، ليس لها من دون الله كاشفة، إلا أن هذا من طب المجـانين، يصـلح لضعفاء اليقين".[٢]

---

(١) الإحياء ٤/ ٣٧٦-٣٧٧.

(٢) قوت القلوب ٢/ ٨٤-٨٦.

❁ ابن عجيبة: "وإنما الخمول هو كما قال الشيخ زروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تحقق النفس بوصفها الأدنىٰ وشعورها به أبدا، ووصفها الأدنىٰ هو الذل... هذه الأدوية التي ذكرناها، هي في حالة المرض، أما من تحقق شفاؤه وكمل فناؤه فهو عبد الله، سواء أظهره أو أخفاه".[1]

وهي من حيث الجملة صحيحة المسلك لولا مبالغة كانوا عليها، وقعوا بها في مخالفات شرعية صريحة، فتربية النفس علىٰ الإخلاص لا تتحقق إلا بالطاعة لا بالمخالفة، ثم إنه ليس من الشرع، ولا الفطرة، ولا العقل: امتهان المرء نفسه وإذلالها، بتطلب ذلك وتكلفه. فالذليل المهين لايرجىٰ منه شيء، إلا أن يذل لرب العالمين. أما إن وقع عليه ذلك بقدر سابق فغير ملوم.

(١) إيقاظ الهمم شرح الحكم ص٣٠-٣٧.

رابعا: التشبه بالإله

كثيرا ما يردد الصوفية: "التخلق بأخلاق الله". وهذه أقوالهم:

❁ الكاشاني:"التصوف هو: التخلق بالأخلاق الإلهية".(١)

❁ ابن عربي: "فالتخلق بأخلاق الله هو التصوف".(٢)

والقصد من ذلك ليس مجرد التزكية والتطهر من الأخلاق الدنيئة؛ باكتساب الفضائل، بل شيء وراء ذلك، يقول الغزالي:

❁ "قيل: تخلقوا بأخلاق الله. وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية، من: العلم، والبر، والإحسان، واللطف، وإفاضة الخير والرحمة علىٰ الخلق، والنصيحة لهم، وإرشادهم إلىٰ الحق، ومنعهم من الباطل، إلىٰ غير ذلك من مكارم الشريعة، فكل ذلك يقرب إلىٰ الله سبحانه، لا بمعنىٰ طلب القرب بالمكان، بل بالصفات".(٣)

كلامه لا شيء فيه من جهة الشريعة، بل يدور عليها، وإن كان الأصح وصفه بغير التخلق؛ بالتعبد والإحصاء كما ورد الأثر في أسماء الله الحسنىٰ: (من أحصاها دخل الجنة) (البخاري)، لكن غيره يذكر ما نفاه ورده، وهو القرب بالمكان لا بالصفات فحسب، وهذا مسلك التصوف وسائر المتصوفة.

---

(١) اصطلاحات الصوفية ص١٦٤.

(٢) الفتوحات المكية ٢/ ٢٦٦.

(٣) الإحياء ٤/ ٣٢٤.

❁ **يقـول الجيلـي**: "ولهـذا أمرنـا السـيد الأواه فقـال: تخلقـوا بـأخلاق الله؛ لتـبرز أسـراره المودعـة في الهياكـل الإنسـانية، فيظهـر بذلك علو العزة الربانية، ويعلم حق المرتبة الرحمانية".[١]

فإنهم يرومون بفكرة التشبه إلىٰ القـول بـأن المتشـبه والمتخلـق يصل إلىٰ مرتبة الإلهية، فيكون محصـلا لمعـاني وحقـائق الصـفات الإلهية، فيكون مشابها، للخالق، قائما بالأمانة بالنظر والتصـرف في الموجودات، وتلك يتعذر القيام بها بأخلاق البشر؛ لذا فـلا بـد مـن التخلـق بـأخلاق الله، لينـال التصـوف والتوفيـق والعصـمة مـن كـل خطأ أبدا:

❁ **يقـول ابـن عربـي**: " فالصـوفي مـن قـام في نفسـه، وفي خلقـه، قيام الحق في كتابه، وفي كتبه".

❁ ويقول: "خلق الإنسان وحمله الأمانة؛ بـأن جعـل لـه النظـر في الموجودات والتصرف فيهـا بالأمانـة؛ ليـؤدي إلـىٰ كـل ذي حـق حقه، كما أن الله أعطىٰ كل شـيء خلقـه، فجعـل الإنسـان خليفـة في الأرض دون غيره مـن المخلـوقين، فهـو أمـين علـىٰ خلـق الله، فـلا يَعْدُ بهم عن سنة الله، الموجودات بيد الإنسـان أمانـة عرضـت عليـه فحملهـا، فـإن أداهـا فهـو الصـوفي، وإن لـم يؤدهـا فهـو الظلـوم والجهول، والحكمة تناقض الجهل والظلم".

❁ ويقـول: "فـالتخلق بـأخلاق الله هـو التصـوف، وقـد بـين العلماء التخلق بأسماء الله الحسنىٰ وبينوا مواضعها، وكيف تنسب إلىٰ الخلق ولا تحصىٰ كثرة، وأحسن ما تصرف فيه مع الله خاصـة،

---

(١) الإنسان الكامل ٢/ ١٩.

فمـن تفطـن وصـرفها مـع الله، أحـاط علمـا بتصـريفها مـع الموجـودات، فـذلك هـو المعصـوم؛ الـذي لا يخطـئ أبـدا، والمحفوظ من أن يتحرك أو يسكن سدىٰ، جعلنا الله من الصوفية القائمين بحقوق الله، والمؤثرين جناب الله".[١]

ثم إن ابن طفيل في قصته "حي بن يقظان" شرح لنا كيفية هذا التشبه، بطريق يظهر فيه ارتباط التصوف بالفلسفة، فهو يربط بين التشبه والمجاهدة والذكر والتأمل والفكر، ويكشف جليا عن الداعي، الذي حمل أبا يزيد والحلاج وغيرهما أن يقولوا: أنا الله!

فملخص ما قاله: الإنسان بجزئه الأشرف الذي عرف به واجب الوجود:

❁ فيه شبه منه، من حيث هو منزه عن صفات الأجسام مثل واجب الوجود، وعليه أن يسعىٰ إلىٰ تحصيل صفاته (الخالق) لنفسه، وأن يتخلق بأخلاقه ويقتدي بأفعاله.

❁ وفيه شبه من سائر أنواع الحيوان الخسيس وهو البدن المظلم، وهو يحتاج إلىٰ رعاية وتفقد.

❁ وفيه شبه بالأجرام السماوية، وعليه أن يحاكيها ويتشبه بها جهده.

---

(١) الفتوحات المكية ٢/ ٢٦٦.

فأعماله ثلاثة:

- عمل يتشبه به بالحيوان.
- وعمل يتشبه به بالأجسام السماوية.
- وعمل يتشبه به بالموجود والواجب.

فالأول من حيث البدن، والثاني من حيث الروح، والثالث يجب عليه من حيث هو هو؛ أي: من حيث هو الذات الذي عرف به ذلك الواجب الوجود، وسعادته في دوام مشاهدة واجب الوجود.

فأما التشبه الأول فلا يحصل به شيء من هذه المشاهدة بل هو صارف عنها، والثاني يحصل له به حظ عظيم من المشاهدة على الدوام، لكن فيه شوب لكونه يعقل ذاته، والثالث تحصل به المشاهدة الصرفة والاستغراق المحض، والذي يشاهد هذه المشاهدة قد غابت عنه ذات نفسه وفنيت وتلاشت، وكذلك سائر الذوات إلا ذات الحق الواجب الوجود.

فالمطلوب الأقصى هو التشبه الثالث، ولا يحصل إلا بعد التمرن الطويل في التشبه الثاني، وهو لا يتم إلا بالتشبه الأول، فالأول وإن كان عائقا بذاته لكنه معين بالعرض، ويؤخذ منه بقدر الضرورة في داخل بدنه من طعام وفي خارجه من غطاء.

وأما التشبه الثاني بالأجرام السماوية ففي ثلاثة أضرب:

❁ الأول: أوصاف بالإضافة إلىٰ ما تحتها من عالم الكون والفساد من تسخين بالذات وتبريد بالعرض وإضاءة وتكثيف.

❁ والثاني: أوصاف لها في ذاتها مثل كونها شفافة ونيرة وطاهرة ومتحركة بالاستدارة علىٰ مركز نفسها وعلىٰ مركز غيرها.

❁ والثالث: أوصاف لها بالإضافة إلىٰ الموجود الواجب الوجود؛ مثل كونها مشاهدة علىٰ الدوام وتتشوق إليه، وتتصرف بحكمه ولا تتحرك إلا بمشيئته.

فيتشبه بها جهده في كل واحدة من هذه الأضرب:

❁ أما الضرب الأول: فبنجدة كل ذي حاجة.

❁ وأما الثاني: بالتزام الطهارة في البدن بالاغتسال والتنظف والتطيب والتزام ضروب الحركة والاستدارة حول نفسه أو حول بيته حتىٰ يغشىٰ عليه.

❁ والثالث: التزام الفكرة في واجب الوجود بقطع العلائق وغمض العين وسد الأذن وحصر الفكر فيه، ويستعين علىٰ ذلك بالاستدارة علىٰ نفسه.

حين ذاك يغيب عن نفسه وجميع المحسوسات، ويبقىٰ كذلك حتىٰ يحتاج إلىٰ ما يقيم بدنه بالشروط السابقة، ثم يعود إلىٰ حالته حتىٰ يبدو له التشبه الثالث، فينظر في صفات واجب الوجود، وهي إما سلبية كتنزهه عن الجسميات، وثبوتية مثل العلم والقدرة والحكمة.

ومن جملة التنزه ألا تتكثر ذاته بهذه الصفات الثبوتية، بل ترجع إلىٰ معنىٰ واحد هو حقيقة ذاته، فليس علمه بذاته زائدًا علىٰ ذاته بل هي ذاته، فالتشبه في صفة الإيجاب هو أن يعلمه فقط دون أن يشرك به شيئا من صفات الأجسام، وأما التشبه به في صفات السلب فهو بالتنزه عن الجسمية وطرحها، وكان قد طرح كثيرا منها عند التشبه بالأجرام السماوية.

فيستعين بالسكون في قعر مغارة مطرقا غاضًّا بصره، معرضا عن جميع المحسوسات، مجتمع الهم في واجب الوجود مدة طويلة، تمر الأيام دون غذاء، حتىٰ تغيب عنه جميع الذوات إلا ذاته، حتىٰ يغيب عن ذاته أيضا، فلا يبقىٰ إلا الموجود الواحد الحق، فحينذاك يسمع نداءه، ويفهم كلامه، ويشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر.

وحقيقة الأمر أنه لما يصل إلىٰ هذه الدرجة من التشبه والفناء عن جميع الذوات بما فيها ذاته، لا يرىٰ في الوجود إلا الواحد الحي القيوم، فيخطر بباله أنه لا ذات له يغاير بها ذات الحق تعالىٰ، وأن حقيقة ذاته هي ذات الحق، وأن الشيء الذي كان يظن أولاً أنه ذات مغاير لذات الحق ليس شيئا في الحقيقة، بل ليس ثم شيء إلا ذات الحق، وأن ذلك بمنزلة نور الشمس من الشمس الذي علىٰ الأجسام الكثيفة، فتراه يظهر فيها، ومتىٰ كان الجسم أصلح لقبول ذلك النور قبله، فإذا عدم القبول لم يكن له معنىٰ،

فمن حصل له العلم بذاته فقد حصل عنده ذاته، فليست الذات هي ذات الخالق عينا، بل هي نور ذلك الشمس أو صورة الشمس في مرآة، فليست هي الشمس ولا المرآة ولا غيرهما، فكل ذلك أورثه السرور واللذة.(١)

فالتشبه هو السمت العام لجميع أئمة الصوفية، لكن منهم من يسميه تشبها، ومنهم من يسميه تخلقا، وبعضهم لتأثره بالآثار النبوية يربطه بأسماء الله التسعة والتسعين، ويجعلها مقامات للسالكين، ومعنىٰ ذلك أنهم في كل مقام يقفون عليه يتشبهون، أو يتخلقون بمعنىٰ ذلك المقام؛ الذي هو اسم من أسماء الله تعالىٰ، يقول أبو عبد الرحمن السلمي:

❁ "فإذا استقر في مقام الصدق في مقام معرفة الله والعلم به والفهم عنه والبقاء به بالفناء عما دونه والجمع له، دخل في ميادين الوصلة والاتصال ... فيسلك إذ ذاك مقامات التسع والتسعين التي هي عدد أسامي الحق تعالىٰ، كل مقام من تلك يقتضي حالا يكون فيها مبطنا باسم من تلك الأسامي، يظهر عليه بركاته، فمنه شربه، وإليه مورده، وعنه مصدره، ويلبسه كل مقام من تلك المقامات نورا وضياء لا يشبه ما تقدم، إلىٰ أن ينتهىٰ إلىٰ أقصىٰ النهايات، ويسلك كل المقامات، فيبقىٰ مع الحق بلا مقام ولا مكان ولا اسم ولا رسم ولا صفة ولا دعوىٰ ولا رؤية،

(١) حي بن يقظان ٥٣-٦٤.

كما ذكر عن بعضهم: أن يكون العبد كما لم يكن، والحق كما لم يزل... وكما سئل بعضهم عن صفتهم، فقال: نفىٰ الحق عنهم صفاتهم، وتولىٰ عنهم بصفاته. ثم يشرف علىٰ علم الباطن، وهو أسرار الحق يبديها للأمناء من الأولياء".[1]

يعني يرجع إلىٰ أوله وإلىٰ معدنه، يرجع إلىٰ حقيقته ومصدره، فتصير له صفات ذلك الأول وأحوال ذلك الأول، لا يحويه مكان، ولا يوقفه زمان، يبقىٰ بلا زمان ولا مكان، كما كان الأمر في أوله علىٰ ذلك النحو، وهذا هو حقيقة البقاء الذي يعقب الفناء، فالبقاء هو في حقيقته التشبه بالإله في الصفات، فالباقي هو المتشبه بصفات الله، التارك لصفاته؛ بمعنىٰ أنه يخرج عن العبودية ويدخل في الربوبية، والربوبية هي مقام المحبوب، وهي أعلىٰ من مقام المحب الذي هو العبودية، كما مر معنا سابقا.

الغزالي يلخص الطريق الصوفي في السلوك، من أوله لآخره، بما كتبه في "إحياء علوم الدين"، فيقول:

" اعلم أن ميل أهل التصوف إلىٰ العلوم الإلهامية دون التعليمية؛ فلذلك لم يحصروا علىٰ دراسة العلم، وتحصيل ما صنفه المصنفون، والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة، بل قالوا: الطريق تقديم المجاهدة، ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمة علىٰ الله تعالىٰ.

---

(١) تسعة كتب في أصول الزهد والتصوف ص٣٨٥.

ومهمـا حصـل ذلـك، كـان الله هـو المتـولي لقلـب عبـده، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم، وإذا تولىٰ الله أمر القلب، فاضت عليه الرحمة، وأشرق النور في القلب، وانشرح الصدر، وانكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية.

فليس علىٰ العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة، وإحضار الهمـة مـع الإرادة الصـادقة، والـتعطش التـام، والترصـد بـدوام الانتظار، لما يفتحه الله تعالىٰ من الرحمة.

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر، وفاض علىٰ صدورهم النور، لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا، والتبري من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها، والإقبال بكنه الهمة علىٰ الله تعالىٰ، فمن كان لله كان الله له.

وزعموا: أن الطريق في ذلك:

أولا: بانقطاع علائق الدنيا بالكلية، وتفريغ القلب منها، وبقطع الهمة عن الأهل، والمال، والولد، والوطن. وعن العلم، والولاية، والجاه. بل يصير قلبه إلىٰ حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه.

ثم يخلو بنفسه في زاوية، مع الاقتصار علىٰ الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم، ولا يفرق فكره: بقراءة قرآن، ولا بالتأمل في تفسير، ولا بكتب حديث، ولا غيره. بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوىٰ الله تعالىٰ.

فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة، قائلاً بلسانه: الله الله على الدوام مع حضور القلب، حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه، ثم يصبر عليه إلى أن يمحى أثره عن اللسان، ويصادف قلبه مواظباً على الذكر، ثم يواظب عليه إلى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ، وحروفه، وهيئة الكلمة. ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه حاضراً فيه، كأنه لازم له لا يفارقه.

وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحد، واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس، وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى، بل هو بما فعله صار متعرضاً لنفحات رحمة الله، فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق.

وعند ذلك، إذا صدقت إرادته، وصفت همته، وحسنت مواظبته، فلم تجاذبه شهواته، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا: تلمع لوامع الحق في قلبه، ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت؛ ثم يعود وقد يتأخر، وإن عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفاً؛ وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق، وقد يقتصر على فن واحد.

ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر، كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم، وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك، وتصفية وجلاء، ثم استعداد وانتظار فقط.

وأما النظار وذوو الاعتبار، فلم ينكروا وجود هذا الطريق، وإمكانه، وإفضائه إلىٰ هذا المقصد علىٰ الندور، فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء، ولكن استوعروا هذا الطريق، واستبطئوا ثمرته، واستبعدوا استجماع شروطه، وزعموا أن محو العلائق إلىٰ ذلك الحد كالمتعذر، وإن حصل في حال، فثباته أبعد منه؛ إذ أدنىٰ وسواس وخاطر يشوش القلب.

وقال رسول الله ﷺ: «**قلب المؤمن أشد تقلباً من القدر في غليانها**»، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام: «**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن**».

وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج، ويختلط العقل ويمرض البدن، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم، نشبت بالقلب خيالات فاسدة، تطمئن النفس إليها مدة طويلة، إلىٰ أن يزول وينقضي العمر قبل النجاح فيها، فكم من صوفي سلك هذا الطريق ثم بقي في خيالٍ واحدٍ عشرين سنة، ولو كان قد أتقن العلم من قبل، لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال. فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلىٰ الغرض.

وزعموا: أن ذلك يضاهي ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه، وزعم أن النبي ﷺ لم يتعلم ذلك، وصار فقيهاً بالوحي والإلهام من غير تكرير وتعليق، وأنا أيضاً ربما انتهت بي الرياضة والمواظبة إليه،

ومن ظن ذلك، فقد ظلم نفسه، وضيع عمره، بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة، رجاء العثور علىٰ كنز من الكنوز، فإن ذلك ممكن، ولكنه بعيدٌ جدًّا؛ فكذلك هذا.

وقالوا: لا بد أولاً من تحصيل ما حصله العلماء، وفهم ما قالوه، ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار، لما لم ينكشف لسائر العلماء، فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة".[١]

ويقول فيه أيضًا:

"وأما حياة الخلوة، ففائدتها دفع الشواغل، وضبط السمع والبصر، فإنهما دهليز القلب، والقلب في حكم حوض، تنصب إليه مياه كريهة كدرة قذرة، من أنهار الحواس، ومقصود الرياضة: تفريغ الحوض من تلك المياه، ومن الطين الحاصل منها؛ ليتفجر أصل الحوض، فيخرج منه الماء النظيف الطاهر.

وكيف يصح له أن ينزح الماء من الحوض، والأنهار مفتوحة إليه، فيتجدد في كل حال أكثر مما ينقص، فلا بد من ضبط الحواس، إلا عن قدر الضرورة، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم، وإن لم يكن له مكان مظلم، فليلف رأسه في جيبه، أو يتدثر بكساء أو إزار، ففي مثل هذه الحالة: يسمع نداء الحق، ويشاهد جلال الحضرة الربوبية.

---

(١) (٣/ ٢٣).

أما ترىٰ أن نداء رَسُولِ اللهِ ﷺ بَلَغَهُ وهو علىٰ مثل هذه الصفة، فقيل له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾ [المزمل:١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر:١]". (١)

ولشيخ الإسلام رد وافر علىٰ هذه الطريقة في الخلوة. (٢)

فهذه هي نهاية المجاهدة والدخول في الولاية الصوفية، وبذلك نكون قد انتهينا من عرض طريقة المتصوفة في تحصيل المحبة والمعرفة الخاصة، وقد لحظنا أن لهم في ذلك طريقين:

❁ **الأول**: طريق نظري، من خلال الرياضة الذهنية، والتأمل خاصة الإنسان الجميل.

❁ **والثاني**: طريق عملي، وهو أخذ بالنفس بالمجاهدة من زهد وترك للدنيا.

وكلا الطريقين معتبر عند المتصوفة، والغالب أنهم يخلطون بينهما، وربما مال إلىٰ الأول منه وقدمه وفضله من تصوف حقيقة، وفهم ارتباط التصوف بالفلسفة، وأما من لم يدرك منهم الجانب الحقيقي للتصوف، فإنه يميل إلىٰ الجانب العملي من زهد وتقلل، لكن كلا الطريقين معمول به في التصوف، وذلك لأن أصل التصوف قائم عليهما جميعا، فالتصوف يقوم علىٰ الرياضة الذهنية والمجاهدة البدنية.

---

(١) (٣/ ٨٢).

(٢) يراجع لزوما: الفتاوىٰ ١٠/ ٣٩٦-٤٠٧.

سابعا: الهدف

في معرفتنا -كما سبق- لـ "ماهية التصوف" تقدمٌ نحو الهدف الصوفي؛ فالفناء مقصد وهدف، لكنه ليس الأخير، فما هو إلا بداية؛ فكل فناء لا يعقبه بقاء فلا فائدة منه:

❁ الهروي: "البقاء اسم لما بقي قائما بعد فناء الشهود وسقوطها".[1]

❁ ابن عربي: "كل فناء لا يعقبه بقاء، لا يعول عليه".[2]

والفناء هو التخلص من الصفات والذات البشرية؛ ليأتي من بعده الهدف الأهم، وهو: البقاء بالصفات والذات الإلهية. وفي هذا المقام يكون الصوفي قد بلغ هدفه، ليس في مجرد البلوغ، بل بما يكون بعده من خصائص ووظائف كونية وإلهية، خلقية وحقية. يشرح هذا ابن عربي:

❁ " بدء الخلق الهباء، وأول موجود فيه الحقيقة المحمدية الرحمانية.

---

(١) منازل السائرين ص١٢٩.

(٢) الفتوحات المكية ٢/ ٥١٢، في التصوف الإسلامي وتاريخه ص١١٩، عودة الواصل.

ولا أين يحصرها لعدم التحيز.

ومـم وجـد؟ وجـد مـن الحقيقـة المعلومـة؛ التـي لا تتصـف بالوجود ولا بالعدم.

وفيم وجد؟ في الهباء.

وعلىٰ أي مثال وجد؟ الصورة المعلومة في نفس الحق.

ولم وجد؟ لإظهار الحقائق الإلهية.

وما غايته؟ التخلص من المزجة؛ فيعرف كل عالم حظه من منشئه من غير امتزاج، فغايته إظهار حقائقه، ومعرفة أفلاك العالم الأكبر، وهو ما عدا الإنسان في اصطلاح الجماعة، والعالم الأصغر يعني الإنسان: روح العالم، وعلته، وسببه، وأفلاكه، ومقاماته، وحركاته، وتفصيل طبقاته. فهذا جميع ما يتضمنه هذا الباب، فكما أن الإنسان عالم صغير من طريق الجسم، كذلك هو أيضا حقير من طريق الحدوث، وصح له التأله، لأنه خليفة الله في العالم، والعالم مسخر له مألوه، كما أن الإنسان مألوه لله تعالىٰ".[١]

وقريب منه نص الحلاج – وقد سبق – في الحقيقة المحمدية، والتي مطلعها: "تجلىٰ الحق لنفسه في الأزل قبل أن يخلق الخلق..".[٢]

---

(١) الفتوحات المكية ١/ ١١٨.

(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص١٣٣، ديوان الحلاج ص٣٠، سير أعلام النبلاء ترجمة الحلاج في الجزء ١٤.

خلاصتها: أن هدف الخلق: إظهار الحقائق الإلهية بوساطة الإنسان. وذلك بفناء الإنسان عن ذاته وصفاته، وبقائه بذات وصفات الحق، وبه تتم الغاية الإلهية. فالهدف الصوفي يتجلىٰ ههنا.

ليس التجلي في الحلول والاتحاد والفناء، بل هذا طريق إلىٰ معرفة الإنسان نفسه ومرتبته؛ ليقوم بعده بدوره في هذه الحياة، وهو دور الوساطة والبرزخ بين الحق والخلق، وليكون كذلك، فعليه الجمع بين حقائق الخلق والحق معا، وقد كان له حقائق الخلق أولا؛ بحكم كونه مخلوقا، فما بقي عليه إلا تحصيل حقائق الحق؛ ليكون به صورة له، والطريق الصوفي هو السبيل لذلك، وقد عرفناه في "السلوك الصوفي"، فقد بقي أن نتعرف علىٰ الدور والوظيفة:

بعد جمع الصوفي للحقائق الإلهية والكونية يستحق اسم: الإنسان الكامل، الولي، القطب، الغوث. ليكون في منزلة البرزخ والوساطة: ابن عربي: "فكأنه برزخ بين العالم والحق، وجامع لخلق وحق، وهو الخط الفاصل بين الحضرة الإلهية والكونية، كالخط الفاصل بين الظل والشمس، وهذه حقيقته".[١]

ابن عربي: "الإنسان الكامل: أقامه الحق برزخا بين الحق والعالم، فيظهر بالأسماء الإلهية، فيكون حقا، ويظهر بحقيقة الإمكان، فيكون خلقا".[٢]

---

(١) المعجم الصوفي ١/ ١٩٤.
(٢) الفتوحات ٢/ ٣٩١.

في هذا الدور يقوم "الإنسان الكامل" بالآتي:

❁ **أولا**: بالوساطة للحق إلىٰ الحق في: تعريفه إليهم، وإيجاد العالم، ثم خلافة الحق بحفظ العالم، وفيض الروح والحياة إليه.

❁ **ثانيا**: بالوساطة للخلق إلىٰ الحق في: التعرف إليه، والفناء فيه، ثم كشف الأسرار الإلهية.

تلك ثمرة البرزخية، وعلة استحداث هذه المرتبة بين الحق والخلق فلسفية محضة: أن الحق ذات بسيطة مجردة من النسب والإضافات، فهي منزهة عن صفات المحدثات، فلا خلق ولا تدبير، فلا بد من واسطة تقوم بكل ذلك".[١]

وفكرة الوحدة المطلقة والواحدية مسيطرة ههنا، فالإله واحد، ولا يصدر عنه إلا واحد، ولايعامل إلا واحدا لا خلقا كثيرا، وهذا من مذاهب الفلاسفة، أخذ به المتصوفة، مما يوثق الصلة:

ابن خلدون: "وقد أشار ابن سينا في كتاب: (الإشارات) في فصول التصوف منها، فقال: جل جناب الحق، أن يكون شرعة لكل وارد، أو أن يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد".[٢]

الجابري: "ينطلق المتصوف من أن الله تعالىٰ لا يوصف بوصف، ولا يتصور بالحس، ولا بالعقل، ولا يقبل التعرف ولا التحديد، فهو هوية مطلقة، وتلك فكرة الإله المتعالي الهرمسية، وذلك هو التوحيد عند العرفانيين عموما، فالله عندهم: أحد.

---

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص١٤٨.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص٤٧٣.

ولا يقولون: واحد. لأن الواحد يستدعي الاثنين، وهما معا يستدعيان الثلاثة".[١]

ابن عربي: "ولولاه من حيث برزخيته، التي لا تغاير الطرفين، لم يقبل شيء من العالم المدد الإلهي الوحداني؛ لعدم المناسبة والارتباط، ولم يصل إليه".[٢]

أولا: وساطته في تعريف الحق إليهم، وإيجاد الكون، والقيام عليه.

تعريف الحق إليهم. يروي الصوفية أثرا لا سند له، فيه: (كنت كنزا لم أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت وتعرفت إليهم).[٣]

خلاصة المعنىٰ بحسب هذا الأثر مضموما إليه الآثار والأقوال والمعاني الصوفية السابقة في "ماهية التصوف" وغيره: أن الإله أحب أن يعرف، فخلق الإنسان الكامل، وأعطاه صورته: أسماءه، وصفاته. ليكون مثالا له؛ به يتعرف الخلق إليه. ثم إنها مشتركة بين جميع المراتب الإنسانية، لكن ظهوره أعلىٰ وأكمل في الحقيقة المحمدية، التي هي الإنسان الكامل، أو القطب والغوث.

---

(١) بنية العقل العربي ص٣١٤.

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ١٠٤.

(٣) موضوع، قاله: ابن حجر، والزركشي، وابن تيمية، انظر: تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور علىٰ ألسنة الناس من الحديث لابن الديبع ص١٤٢، الفتاوىٰ ١٨/ ٣٧٦، درء تعارض العقل والنقل، حاشية ٧، ص٨/ ٥٠٧

الإيجـاد. وهـو مخـتص بالمرتبـة الإنسـانية الكاملـة: الحقيقـة المحمديـة، الإنسـان الكامـل .. إلـخ، فكـل الحقـائق العلويـة والسفلية إنما صـدرت عنهـا، وهنـا يـرد المفهـوم الفلسـفي المبنـي علىٰ الانتفاء التام للمناسبة بين الحق والخلق: "الواحد لا يصدر عنه إلا واحد". تحت هذا تم الإيجاد:

❁ ابن عربي: "الأول وحده خليفة الحق، وما ظهر عنه من أمثاله في عالم الأجسام، فهم خلفاء هذا الخليفة، بدل عنه".[١]

❁ ابن الفارض:[٢]

وروحـــي لـــلأرواح روح وكـــل مـــا ترىٰ حسنا في الكون من فيض طيتي
ولـولاي لـم يوجـد وجـود ولـم يكـن شـــهود ولـــم تعهـــد عهـــود بذمـــة
فـــلا حـــي إلا عـــن حيـــاتي حياتـــه وطـــوع مـــرادي كـــل نفـــس مريـــدة

❁ **الجيلي**: "اعلـم: أن هـذا الملـك هـو المسـمىٰ في اصـطلاح الصوفية بالحق المخلوق بـه والحقيقـة المحمديـة، نظـر الله تعـالىٰ إلىٰ هـذا الملـك بمـا نظـر بـه إلىٰ نفسـه، فخلقـه مـن نـوره، وخلـق العـالـم منـه، وجعلـه محـل نظـره مـن العـالـم، ومـن أسـمائه: أمـر الله".[٣]

---

(١) الفتوحات المكية ٣/ ٢٨٠.
(٢) التائية المسماة بنظم السلوك ص٤١، ٦١.
(٣) الإنسان الكامل ٢/ ١٥.

❁ **ابـن خلـدون**: "وأول مراتـب التجليـات عنـدهم: تجلـي الذات علىٰ نفسه. وهو يتضمن الكمال بإفاضة الإيجاد والظهور؛ لقوله في الحديث الذي يتناقلونه: (كنت كنزا مخفيا، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق ليعرفوني).

وهـذا الكمـال في الإيجـاد المتنـزل في الوجـود، وتفصـيل الحقـائق، وهـو عنـدهم: عـالم المعـاني، والحضـرة الكماليـة، والحقيقة المحمدية. وفيها: حقائق الصفات، واللوح، والقلم، وحقـائق الأنبيـاء والرسـل أجمعـين، والكمـل مـن أهـل الملـة المحمدية، وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية. ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرىٰ في الحضرة الهبائية، وهي مرتبة المثال، ثم عنها العرش، ثم الكرسي، ثم الأفلاك، ثم عالم العناصر، ثم عالم التركيب. هذا في عالم الرتق، فإذا تجلت فهي في عالم الفتق.

ويسـمىٰ هـذا المـذهب مـذهب أهـل التجلـي، والمظـاهر، والحضرات. وهو كلام لا يقتدر أهل النظر إلىٰ تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه وبعد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل".[1]

محصـل مـا يـذكره هـؤلاء الفلاسـفة، والمتصـوفة فلاسـفة: أن الحق واجب الوجود صدر عنه واحد، اختلفوا في تسميته، واتفقوا علىٰ معناه: الحقيقة المحمدية، النور المحمدي، الإنسان الكامل، الأول، العقل الأول، الفعال.. إلخ، وظيفته أن يصدر عنه: النفس الكلية.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٤٧١.

ثم باتحاد العقل والنفس صدرت النفوس الجزئية المخلوقة كافة. والشيء الذي يقابله: أن هذه النفوس تعود إلىٰ الكلية، ثم العقل، ثم واجب الوجود، وتلك هي الغاية.

القيام بالكون. هي الخلافة التي حقيقتها: التصريف والتدبير المطلق. إذ انتهىٰ الفكر الصوفي الفلسفي: إلىٰ أنه منزه عن صفات المحدثات. ومن مقتضىٰ التنزيه: أنه لا مناسبة بين الحق والخلق. وقيامه بالكون لا يكون إلا بشرط المناسبة، فلا قيام له به إذن، والقائم هو الكامل والحقيقة المحمدية، فهو مستخلف، وهذا هو معنىٰ الاستخلاف في الآيات.

❁ ابن عربي:[١]

إن الخليفة من كانت إمامته من صورة الحق والأسماء تعضده

"فلا يتصرف من هو علىٰ الصورة إلا تصرف الحق بها".[٢]

(الفتوحات المكية ٤/ ٨٥)

❁ الجيلي: "ولهذا الملك في: العالم الأفقي، والعالم الجبروتي، والعالم العلي، والعالم الملكوتي، والعالم الملكي هيمنة إلهية خلقها الله في الملك، وقد ظهر بكماله في الحقيقة المحمدية".[٣]

---

(١) الفتوحات المكية ٤/ ٤.

(٢) الإنسان الكامل ٢/ ١٥.

(٣) تسعة كتب في الزهد ص١٦١.

وقد تنوعت طرق استدلالهم التلفيقي بين الشريعة والفسلفة لهذا المعنىٰ:

❁ فالسلمي يرىٰ اتفاق القدر في إرادة الولي مع إرادة الإله، وبهذا يقع تصرفه وتدبيره، قال: "ثم تظهر له الكرامات بإجابة الدعوات وبلوغ الطلبات؛ لأن الله سبحانه لا يطلق لسانه بالدعاء والسؤال، إلا إذا قضىٰ كونه، ولا يبسط يده في انقلاب الأعيان، إلا إذا أراد إيصاله منه إلىٰ مراده".[١]

❁ وأما أبو طالب المكي وابن عربي فيقولان: إن الله تعالىٰ أعطاه "كن" التمليك الإلهي:

○ ابن عربي: "ولم يرد نص عن الله ولا عن رسوله في مخلوق، أنه أعطي (كن) سوىٰ الإنسان خاصة".[٢]

○ أبو طالب: "فلا تنكرن من هذا شيئا؛ فإنه يعطي المحبوب في الدنيا أول عطاء أهل الجنة، وهو: (كن) ".[٣]

❁ وأما الجيلاني فله رأي في تحقق هذا: أن إرادته تتحد بإرادة الإله، فتكون واحدة، قال: "فتنقىٰ عن أخلاق البشرية، فلن يقبل باطنك شيئا غير إرادة الله عز وجل، فحينئذ يضاف إليك التكوين وخرق العادات، فيرىٰ ذلك منك في ظاهر الفعل والحكم،

---

(١) الفتوحات المكية ٣/ ٢٩٥.
(٢) قوت القلوب ٢/ ٨١، ٨٢.
(٣) السابق.

وهـو فعـل الله وإرادتـه حقـا في العـالم، فتـدخل في زمـرة المنكسـرة قلوبهم، الذين كسرت إرادتهم البشرية، وأزيلت شهواتهم الطبيعية، فاستؤنفت لهم إرادة ربانية".[١]

فهـذه طرائـق الصـوفية في الاسـتدلال الشـرعي لمـا يعتقدونـه تصوفا، يقع به الالتباس لمن لم يدرك الفرق، ويبلغ مرتبة التمييز بين المعتقدات المختلفة، فكل ما قيل ليس فيه أثارة من علم عن سلف هذه الأمة صحابة وغيرهم، بل فيه اشتباه من بعض الوجه، يدخل في "كرامات الأولياء"، والكرامات لا تبلغ بالعبد أن تطابق إرادته إرادة المولىٰ مطابقة مطلقة، وإلا كان إلها آخر، كذلك أن يعطىٰ (كن)، وما أوردوا فيه من أثر فلا أصل له ولا سند.

علىٰ أن الهجويري ذكر ذريعة أخرىٰ، أشبه بمذاهب أخرىٰ إلا ملة الإسلام، وهو قوله:

❁ "فالله أبقىٰ البرهان النبوي إلىٰ اليوم، وجعل الأولياء سبب إظهاره؛ لتكون آيات الحق، وحجة صدق محمد عليه السلام ظاهرة دائما، وجعلهم أولياء العالم، حتىٰ صاروا مجردين لحديثه، وطووا طريقة متابعة النفس، حتىٰ إن الأمطار تمطر من السماء ببركتهم، وينبت النبات من الأرض بصفاء أحوالهم، وينتصر المسلمون علىٰ الكفار بهمتهم".[٢]

---

(١) فتوح الغيب ص١٤.

(٢)كشف المحجوب ٢/ ٤٤٧.

❁ **ومثله عن ابن عربي**: "يشترك الإنسان الحيوان مع الكامل في الأدوات الصناعية، التي بها يتوصل إلىٰ مصنوع مما يفعل بالأيدي، ويزيد الكامل عليه بالفعل بالهمة، فأدواته همته، وهي بمنزلة الإرادة الإلهية؛ إذا توجهت همته علىٰ إيجاد شيء، فمن المحال إلا يكون ذلك الشيء مرادا".[١]

ثانيا: وساطته في تعرف الخلق إلىٰ الحق، وتحصيل العلم اللدني.

هذا هو الشق الآخر من عملية الوساطة في الفكر الصوفي، وهي عكسية؛ فالأولىٰ تنازلية، وهذه تصاعدية، فالأولىٰ فيها نظر الحق إلىٰ الخلق، وبهذه الوساطة: أوجدهم، ورحمهم، وحفظهم، وتعرف إليهم. وفي الثانية تطلع الخلق إلىٰ الحق، وبها: يتعرفون إليه، ويتقربون، ويتحدون، ويفنون، ويبقون، وينالون العلم اللدني.

وكما تقدم، فإن من الممتنع إدراك الحق إدراكا مباشرا؛ للتنزه عن الحوادث والمناسبة، فبد من الوساطة التي يقوم بها "الإنسان الكامل"؛ بما له من ازدواجية: إلهية، كونية تؤهله لهذا.

تعرف الخلق إلىٰ الحق. يرىٰ الصوفية وجوب معرفة "الإنسان الكامل"؛ لأن بها معرفة الله تعالىٰ، لأن له صورته، وكافة أسمائه وصفاته، والمعرفة تكون من طريقين:

❁ **الأول**: من جهة النفس إذا كملت كمالا صوفيا، والأصل فيها الكمال لو علمت.

---

(١)الفتوحات المكية ٣/ ٢٩٨.

❁ **الثاني**: من جهة الكامل إذا قصرت النفس جهلا بمنزلتها.

○ الكلمة المشهورة: "من عرف نفسه، عرف ربه".

○ ابن عربي: "فلما أوجد الكامل منا علىٰ الصورة، عرفه الكامل من نفسه، بما أعطاه من الكمال، وكان العبد الكامل حقا".(١)

○ ابن عربي: "ولا يعرف قدر الحق إلا من عرف الإنسان الكامل، الذي خلقه الله علىٰ صورته، وهي الخلافة".(٢)

○ نيكلسون: "الإنسان الكامل هو الواسطة التي تنكشف بها كل معرفة بالله".(٣)

والتعرف إليه حاصل في كل حال؛ لعدم خلو الأرض من كامل:

❁ ابن عربي: "فلا تخلو الأرض عن ظهور صورة إلهية، يعرفها جميع خلق الله، ما عدا الثقلين: الإنس، والجن. فإنها معروفة عند بعضها، فيوفون حقها من التعظيم والإجلال لها".(٤)

❁ الجيلي: "وهو واحد منذ كان الوجود إلىٰ أبد الآبدين، ثم له تنوع في ملابس، ويظهر في كنائس، فيسمىٰ باعتبار لباس، ولا يسمىٰ به باعتبار لباس آخر، فاسمه الأصلي الذي هو له محمد، وكنيته أبو القاسم، ووصفه عبد الله، ولقبه شمس الدين،

---

(١) الفتوحات المكية ٣/ ٤٠٩.

(٢) الفتوحات المكية ٤/ ١٣٢.

(٣) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص١٦٨.

(٤) الإنسان الكامل من كلام ابن عربي لغراب ص٢٤.

ثـم لـه باعتبـار ملابـس أخـرىٰ أسـام، ولـه في كـل زمـان اسـم يليـق بلباسه في ذلك الزمان".[١]

ثانيـا: تحصيـل العلـم اللـدني. أي: العلـم الإلهـي، فهـذا الكامـل يجـد هـذا العلـم في نفسـه صـرفا بـلا تعلـم ولا تكلـف، بـل بسـلوك الطريق الصوفي كما حدد سابقا: الرياضة البدنية أو الذهنية.

وبه يحصل الكشف، الذي هـو وسـيلة لتحصـيل العلـم اللـدني، فأعظم كشف يكاشف به الصوفي هو: نوع الصـلة بينـه وبـين الإلـه. الذي يبلغ به الفكر الصوفي إلىٰ درجـة التطـابق، حتىٰ يكـون العبـد ربًّـا، والـرب عبـدًا، كمـا قـال ابـن عربـي، ولأجلـه قـال البسـطامي: "إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني"، والحلاج: "أنا الحق".

نعم فيهم من لم يعتقد الحلول والاتحاد، فله اتحاد شـعوري لا حقيقي، وهو مـا يسـمىٰ بمرتبـة "الفنـاء عـن شـهود السـوىٰ"، لكـن فيهم كذلك من أراد الحقيقي، وهو حقيقة الفكر الصوفي.

❁ **الحلاج:**[٢]

سـبحان مـن أظهـر ناسـوته ... سـر سـنا لاهوتـه الثاقـب
ثـم بـدا لخلقـه ظـاهرا ... في صـورة الآكـل والشـارب
حتـىٰ لقـد عاينـه خلقـه ... كلحظـة الحاجـب بالحاجـب

---

(١) الإنسان الكامل ٢/ ٧٤.

(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص١٣٣، ديوان الحلاج ص٣٠.

❁ **ابن عربي:**[١]

الــرب حــق والعبــد حــق يـا ليـت شـعري مـن المكلـف
إن قلــت عبــد فــذاك ميــت أو قلــت رب فــأنىٰ يكلــف؟

ولهم كشوفات أخرىٰ دون ذلك، هو معرفة ما في الكون أعلىٰ وأسفل كعلم الإله، سواء بسواء، ومنه قول البوصيري في بردته عن الإنسان الكامل النبي محمد ﷺ:

فـإن مـن جـودك الـدنيا وضـرتها ومـن علومـك علـم اللـوح والقلـم

إن نصوصـهم في أنـواع الوسـاطات كثيـرة جـدا، وعليـه بنـوا الاستغاثة بالأولياء ودعاءهم من دون الله تعالىٰ، وسؤالهم ما لا يقـدر عليـه إلا هـو سـبحانه، وتعظـيمهم بــ: الـذبح، والنـذر، والطواف، وكل صور الغلو نتجت عن مفهوم الواسطة هذه.

(١) الفتوحات المكية ١/ ٢.

ثامنا: الطرق

❁ الابتداء والباعث:

جمع طريقة، وهي معروفة، وقد عرفت اصطلاحا فقيل: "الطريقة هي: السيرة المختصة بالسالكين إلىٰ الله، من قطع المنازل والترقي في المقامات".[1]

وهو تعريف ناقص؛ فلم يذكر أركانه، وهم: الشيخ، والمريدون، ومنهج السلوك. فهو: مجتمع عقائدي سلوكي، عليه قيّم، له الطاعة المطلقة تدينا من أفراده، يراد به التطهير والترقي.

والصوفية ليسوا بدعا في هذا النهج، فعامة التجمعات العقدية احتوت علىٰ شيء من هذا، بتفاوت بينها، وفي الفرق البدعية، الأتباع أشد انجذابا والتفافا حول القيّم؛ بالطاعة والخضوع المطلق في بعض الأحيان، كما نراه في فرق الشيعة خصوصا.

---

(١) اصطلاحات الصوفية للكاشاني، معجم مصطلحات الصوفية لأبي خزام ص١١٣.

لكنه في أهل السنة مختلف الحقيقة والصورة؛ فلا يوجد فيهم قيّم مماثل، بل عالم يقتدىٰ به، ويؤخذ منه العلم، وله التوقير والاحترام، من دون طاعة مطلقة أو تزكية مطلقة؛ وله فلا يوجد فيهم: ولي، قطب، غوث، إنسان كامل، ولا طريقة كطرق الصوفية. وليس فيهم: إمام، آية، روح أو ظل لله، كما عند الشيعة.

فالشيخ – عند هؤلاء- والولي والكامل – كذا الإمام- لا يُخْطِئ ولا يُخَطّأ، أما العالم –عند أهل السنة-فيُخْطِئ ويُخَطّأ؛ ولأجله لم يكن ثمة طرق لأهل السنة مماثلة لما لدىٰ الصوفية، بل وجدت مذاهب فقهية، ليس فيها شيخ مطاع في زمن ولا مكان، بل علماء مذهب يرجع إليهم في معرفة الراجح من أقوال الإمام، من غير إلزام بقوله ولا بأقوالهم، بل اللازم قول السلف الصدر الأول؛ أهل القرون المفضلة.

فهذا فرق جوهري في معاملة أهل السنة لعلمائهم، ومعاملة الصوفية لمشايخهم، أثمر اختلافا في الطريق؛ فتولد لدىٰ الصوفية طرق ومشايخ لهم قيام عليها بالشروط السابقة، دون أهل السنة.

فقد كان لزاما في النهج الصوفي ظهور ما يسمىٰ بـ" الطرق الصوفية"، فالبذرة قائمة، والجرثومة حاضرة، ولا بد من بدوّ الثمرة والزرع حينا، وهذا ما كان.

فلو سأل سائل:

ما سبب ظهور الطرق الصوفية، وبلوغها هذه الأعداد الكبيرة اليوم، وهي مرشحة قابلة للزيادة؟

فجواب ذلك: ما سبق مما ذكر من عقيدة الصوفية في الشيخ، فلتراجع نصوصهم هنالك، فقد حُصِر المريد أو التلميذ ومنع من سلوك طريقه إلىٰ التطهر والترقي إلا بشيخ، فمن الممتنع السلوك الفردي المستقل، فما عساه أن يصنع –والمريدون– إلا الالتفاف حول الشيخ، وطأطأة الرأس، وتسليم النفس، والسمع والطاعة المطلقة، وإلا فلن يكون له إمام سوىٰ الشيطان!

واتباع الشيخ ليس في الحضرة فحسب، بل بالسرّ أيضا، فلا يخفي عنه سره ولو دق أو جل، ولا يعترض عليه في شيء، وعليه أن يستحضر صورته في عقله وقلبه، ويدور معه حيث دار، كما هو ظاهر عند النقشبندية، إلىٰ غير ذلك من الوصايا للمريد، فهذه خميرة صالحة لتكوين مملكة من ممالك الطاعة الدينية المطلقة، كالتي كانت في أوربا للقس والبابا في القرون الوسطىٰ بأوروبا.

ولهذا السبب لم يتأخر كثيرا ظهور الطرق، فقد مرت الطبقة الأولىٰ (٢٥٠هـ) والثانية (٣٠٠هـ) والثالثة (٣٣٠هـ) والرابعة والخامسة (٤٠٠هـ)، بحسب "طبقات الصوفية" للسلمي، ليس فيهم شيخ له طريقة منظمة، كالتي بدت في القرن السادس،

إنما تعاليم وأقوال وأفعال متبعة، دون تراتيب هيكلية تنظيمية، وإن كان في التصوف جرثومة الطريقة المنظمة، وفي كلمات الصوفية ما يشير إلىٰ ذلك ويقرره، كما في وصاياهم للمريد، فهذا السلمي يقول في رسائله:

❁ "فمن آداب الفقر ومواجبه: التأدب بإمام من أئمة القوم والتخلق بأخلاقه، ومتابعة السنة في أفعاله وأقواله وأحواله".[١]

❁ "من لم يتأدب بشيخ فهو بطال، ومن لم يلحقه نظر شيخ وشفقته لا يجيء منه شيء".[٢]

من ههنا ظهرت طرق صوفية في فترة مبكرة في صورة ساذجة: تلامذة مريدون يتبعون شيخا يقتدون بطريقته، بلا تنظيم ولا إدارة طرقية. وقد ذكر الهجويري في "كشف المحجوب" فقال:

❁ "توجد فرقة يقال لها: (النورية) يقتدون به [أي: أبي الحسين النوري] ويتولونه".[٣]

النوري من الطبقة الثانية توفي سنة ٢٩٥هـ، وهذه الفرقة باسمه وجدت في عهد الهجويري في نهاية الرابع وبداية الخامس؛ أي: بعده بمائة سنة، ولم يذكر لها شيخا في حينه، فيظهر من ذلك تبعثر نظامهم الجمعي، واتحاد سلوكهم وعقائدهم علىٰ طريقة النوري،

---

(١) تسعة كتب في أصول التصوف ص٣٦٦-٣٧٧.
(٢) تسعة كتب في أصول التصوف والزهد ص١٦٠.
(٣) ١/ ٣٤٣.

فالمستخلص من هذا: أنها طريقة ساذجة غير مكتملة الأركان. وهكذا كانت الطرق الأخرىٰ حتىٰ القرن الخامس، فقد ظهر منها – علىٰ هذه الصورة – ثنتا عشرة طريقة، قال الهجويري:

❁ "وجملة المتصوفة اثنتا عشرة فرقة، منهم فرقتان مردودتان، وعشر مقبولة، وأولىٰ الفرق المقبولة: المحاسبية. والثانية: القصارية. والثالثة: الطيفورية. والرابعة: الجنيدية. والخامسة: النورية. والسادسة: السهلية. والسابعة: الحكيمية. والثامنة: الخرازية. والتاسعة: الخفيفية. والعاشرة: السيارية. وهؤلاء جملة من المحققين وأهل السنة والجماعة.

أما الفرقتان المردودتان، فواحدة منهما: الحلولية المنسوبة إلىٰ الحلول والامتزاج، وإليهم ينتمي: السالمية، والمشبهة. والأخرىٰ: الحلاجيون، المردودون لتركهم الشريعة وإلحادهم، وإليهم ينتمي: الإباحيون، والفارسيون. وسوف أورد في هذا الكتاب – في موضعه – بابا في الفرق بين الفرق، وأبين اختلاف تلك الفرق العشر، واختلاف هاتين الفرقتين؛ لتتم الفائدة إن شاء الله تعالىٰ".[1]

وقد وفىٰ بذكرهم، وابتدأ بذكر اتفاقهم في الأصول مهما اختلفوا في الفروع، فقال:

---

(١) كشف المحجوب ١/ ٣٤٣.

❁ "ومهما كانوا مختلفين في: المعاملات، والمجاهدات، والمشاهدات، والرياضات، فإنهم موافقون ومتفقون في أصول وفروع الشرع والتوحيد. وقد قال أبو يزيد رضي الله عنه: اختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد".[١]

هذه حقيقة صوفية؛ اتفاقهم على التوحيد بمعناه الصوفي؛ الذي هو المعتقد في الإله وصلتهم به، مهما تنوعت طرقهم، ولذا تجد الغالي منهم صريحا في قوله بمعتقده، ومن وصف بالاعتدال - وربما كان كذلك في نفسه- يشير بكلمات تقترب به من الغالي، فلا تعلم: أهو تقية، أم اشتباه وتأويل؟

وفي "العقود الدرية" لابن عبد الهادي، في ترجمة عماد الدين ابن شيخ الحزامين، ذكر لطائفة من فرق الصوفية، من كلام عماد الدين، قال: "ما أحدثته أنواع الفقراء من: الأحمدية، والحريرية.. ما أحدثته الزنادقة من الفقراء والصوفية من قولهم بالحلول والاتحاد، كـ: اليونسية، والعربية، والصدرية، والسبعينية، والتلمسانية..".[٢]

والناظر الفاحص في أمر المتصوفة -مقالاتهم ومصنفاتهم- يخرج بنتيجة: أن الهدف واحد في الفكر الصوفي:

---

(١) كشف المحجوب ٢/ ٤٠٣.

(٢) ص٢٠٠-٢٠١.

❁ فمنهم من يأتيه من طريق فج كـ: ذي النون، وأبي حمزة البغدادي، والبسطامي، والشبلي، والحلاج في الأول. وكـ: ابن عربي، وابن الفارض، وابن سبعين، والقونوي في الآخر.

❁ ومنهم من يتلطف ويتكلف، ويدفع بالتأويلات والتعليلات، وربما كان صادقا في نفسه مخلصا، ليس له قصد إلا الاستغراق الشعوري والنفسي في محبة الله تعالىٰ بلا اتحاد.

أما من خرج عن هذه الحقيقة، والتي مر تقريرها في "ماهية التصوف"، فلن يكون صوفيا حينئذ إلا رسما وصورة، وبدراسة الطرق الصوفية يتضح اتفاقها علىٰ هذا الأصل.

أهم الطـرق الصوفية

الأهمية هنا من حيث الانتشار والصيت والقدم، وهي ثلاثة: القادرية، والرفاعية، والشاذلية. وهناك فرق أخرىٰ تقرب منها، كـ: التيجانية، والنقشبندية، والختمية، والدسوقية. لكن للاختصار، نكتفي بما ذكر.

(القادرية)

نسبة إلىٰ الشيخ عبد القادر الجيلاني ولد سنة ٤٧١هـ، وتوفي سنة ٥٦١هـ.[١] ينسب إلىٰ بيت النبوة، وإن كان لم يأبه بهذا ولم يدعه ولا أولاده.[٢] وبعض الباحثين ينسب إحداث الطريقة إليه؛ لشواهد وآثار لم يذكرها، ولكلمة في "الغنية" قال فيها: "ويجب علىٰ المبتدئ في هذه الطريقة: الاعتقاد الصحيح؛ الذي هو الأساس، فيكون علىٰ عقيدة السلف الصالح".[٣] وآخر مختص بدراسة هذه الشخصية جزم بتأسيسها بلا شاهد، فقال: "واستمرت الطريقة القادرية مئات الأعوام، وسارت – معظم الوقت – علىٰ القواعد التي رسمها مؤسسها، وتدفقت بين ربوع العالم الإسلامي، حتىٰ صارت اليوم أوسع الطرق الصوفية انتشارا في العالم الإسلامي".[٤]

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٣٩.
(٢) باز الله الأشهب ص٣٠.
(٣) عبد القادر الجيلاني وآراؤه العقدية والصوفية ص٦٣٦.
(٤) عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب ص١١٠.

وفي كل حال ليس ثمة نص في المسألة فيما يبدو، فقد يكون كذلك، لكن الحقيقة: أنها أول طريقة من جهة الانتساب إلىٰ الشيخ، فلا يعرف شيخ قبله له طريقة ممتدة حتىٰ اليوم.

والشيخ سلفي العقيدة كما حقق في رسالة "عبد القادر الجيلاني وآراؤه العقدية والصوفية"، ومن ثم فالمظنون أن تكون طريقته وأتباعه علىٰ ذلك، غير أن هذا مختلف، فالأتباع لم يكونوا علىٰ نهج شيخهم في المعتقد، فوقعوا في كثير من الانحرافات العقدية؛ في توحيد الألوهية، والربوبية، والكرامات، والقول بالحقيقة المحمدية ووحدة الوجود.[١] كما أن الشيخ أثر عنه في كتابه "الغنية" أوراد بدعية ليس لها سند، ونسبت إليه أوراد وأحزاب لم تصح عنه.[٢] كما في "فتوح الغيب"؛ حيث إن مكتبة "الحلبي الأزهري" ألحقت به قصيدة بعنوان "النادرات العينية" وهي لعبد الكريم الجيلي، علىٰ علم؛ وحذفت منها أبيات ترجم فيها الجيلي لنفسه ذاكرا تاريخ مولده، وكتب في الهامش: "بياض في الأصل"، لئلا ينكشف الادعاء.[٣]

---

(١) الطرق الصوفية نشأتها وعقائدها ص٨٤.

(٢) عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب ص٩٨، دائرة معارف البستاني ١١/ ٦٢١.

(٣) عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب ص٩١-٩٢.

ولـه موقـف محمـود مـن الفلسـفة والكـلام، بخـلاف كثيـر مـن المتصوفة بخاصة المتأخرين:

❁ دخل عليه رجل ومعه كتاب يشتمل علىٰ شيء من الفلسـفة وعلوم الروحانيات، فنهره قائلا: "بئس الرفيق كتابك هذا".[١]

❁ ويحكـي شـهاب الـدين السـهروردي صـاحب "المعـارف" أنه اشتغل بعلم الكلام وهو شاب، فكان عمه أبـو النجيـب يزجـره، فأتاه يوما فذهب به إلىٰ زيارة الشيخ، فذكر له، فقال: "يـا عمـر، أي كتاب حفظت فيه؟ فقلت: الكتاب الفلاني، والكتاب الفلاني.. فمـر بيـده علـىٰ صـدري، فـوالله مـا نزعهـا وأنـا أحفـظ مـن تلـك الكتـب لفظة، وأنساني الله جميع مسائلها، ولكن وقـر الله تعـالىٰ في صـدري العلـم اللـدني، وقـال لـي: يـا عمـر، أنـت آخـر المشـهورين في العراق".[٢]

❁ وله كلمة موفقة في تعريف الزهد، قال فيه لمن جـاءه يشـكو إليه إقبال الدنيا عليه، قال:

"اجعلوا ذلك في أيديكم، وليس في قلوبكم، فلا يضركم".[٣]

---

(١) بهجة الأسرار ص٤٢، باز الله الأشهب ص٩٧.
(٢) بهجة الأسرار ص ٣٢، باز الله الأشهب ص٦٨-٦٩.
(٣) باز الله الأشهب ص٢٠.

وله كلمات في التوحيد نافعة لأتباعه لو اتبعوه فيها:

❁ "يا من يشكو الخلق مصائبه، أيش ينفعك شكواك إلىٰ الخلق، لا ينفعونك ولا يضرونك، وإذا اعتمدت عليهم وأشركت في باب الحق عز وجل يبعدونك، وفي سخطه يوقعونك، وعنه يحجبونك، أنت يا جاهل تدعي العلم؟! من جملة جهلك طلبك الدنيا من غير ربها عز وجل، تطلب الخلاص من الشدائد بشكواك إلىٰ الخلق!".[١]

❁ "إذا كان هو الفاعل علىٰ الحقيقة، فلم لا ترجعون إليه في جميع أموركم، وتتركون حوائجكم، وتلزمون التوحيد له في جميع أحوالكم؟".[٢]

ولم يخل كلام الشيخ من شطحات، فيقول عن الصوفي:

❁ "ثم يفتح باب القربىٰ إلىٰ المليك الديان، ثم يرفع منه إلىٰ مجالس الأنس، ثم يجلس إلىٰ مجالس الأنس، ثم يجلس علىٰ كرسي التوحيد، ثم ترفع عنه الحجب ويدخل في الفردانية، ويكشف عنه الجلال والعظمة، فإذا وقع بصره علىٰ الجلال والعظمة، بقي بلا هو، فانيا عن نفسه وصفاته، عن حوله وقوته،

---

(١) الفتح الرباني والفيض الرحماني ص٩٢، ٩٩، ٣٠٦.
(٢) الفتح الرباني له ص٢١٣.

وحركته وإرادته، ومناه ودنياه وأخراه، فيصير كإناء بلور مملوء ماء صافيا.. فحينئذ يسمىٰ "صوفيا"، علىٰ معنىٰ أنه يصفىٰ من التكدر بالخليقة والبريات، وإن شئت سميته بدلا من الأبدال، وعينا من الأعيان، عارفا بنفسه وربه".[١]

❁ ومن قوله عن الصوفي:" هو محمول القدر، كرة المشيئة، مربىٰ القدس، منبع العلوم والحكم، بيت الأمن والفوز، كهف الأولياء والأبدال.. عين القلادة، درة التاج، منظر الرب".[٢]

❁ ومن قوله:" عثر الحلاج ولم يكن في زمانه من يأخذ بيده، ولو أدركته لأخذت بيده".[٣] يقول زيدان عن فتوىٰ له شبيهة بهذا، في مدع أنه يرىٰ الله عز وجل: "وفي الفتوىٰ الثالثة الأخيرة إعلام بتدقيق الإمام وإبحاره في فيوضات المعرفة الربانية، متحققا برقيق المشاهدات، فهو لم يفزع ويزبد ويحوقل كواحد من فقهاء القشور، وإنما أدرك هذا المريد الذي عثر في طريقه، وأخذ بيده شارحا حقيقة حاله؛ لأن الإمام عاين من مقام التمكين ما عاينه المريد وهو في التلوين.. وهذا نفس الموقف الذي اتخذه الإمام من قضية الحلاج". ثم ذكر النص الآنف في الحلاج.[٤]

---

(١) الغنية لطالبي طريق الحق له ٢/ ١٦٠، باز الله الأشهب ص٢٣-٢٤.
(٢) باز الله الأشهب لزيدان ص٢٤.
(٣) ديوان الجيلاني، الحلاج. باز الله الأشهب ص٨٣.
(٤) باز الله الأشهب ص٨٣.

وجوابه في الفتوىٰ المشار إليها عن حقيقة قول المريد: أنه يرىٰ الله: أهو محق أم مبطل؟

قال: "هو محق ملبس عليه، وذلك أنه شهد ببصيرته نور الجمال، ثم خرق من بصيرته إلىٰ بصره منفذ، فرأىٰ بصره ببصيرته متصل شعاعها بنور شهوده، فظن أن بصره رأىٰ ما شاهدته بصيرته، وإنما رأىٰ بصره بصيرته فحسب، وهو لا يدري".

هذا والطريقة لها انتشار واسع في: العراق، والشام، والمغرب، كذلك في شرق آسيا وأفريقيا وأوربا والجمهوريات الإسلامية في آسيا، وتفرعت عنها طرق كالكسنزائية بالعراق، والبودشيشية بالمغرب.

❁ ومن مشايخها: شهاب الدين السهروردي صاحب "العوارف" وعبد الغني النابلسي.

❁ ومن كتب الطريقة: "الغنية" وهو أهم كتاب للإمام، وضعه بنفسه، ثم ما ألقاه في مجالسه: "فتوح الغيب" ضم ٧٨ مقالة، وقد شرحها ابن تيمية في جامع الرسائل، و"الفتح الرباني والفيض الرحماني" وهو المجموع الثاني من مجالسه، و "جلاء الخاطر في الظاهر والباطن" وهو المجموع الأخير من المجالس، وترتيب هذه المجالس بحسب التأريخ، ثم هنالك مجموعة من كتب الأوراد والأحزاب منسوبة إليه.[1]

---

(١) باز الله الأشهب ص٨٩-٩٤.

(الرفاعية)

نسبة إلىٰ أحمد بن علي الرفاعي المغربي المولود سنة ٥٠٠هـ، المتوفىٰ سنة ٥٧٨هـ بالعراق، وتسمىٰ بـ "البطائحية" نسبة إلىٰ بطائح في قرية أم عبيدة من قرىٰ واسط بالعراق، و"الأحمدية" نسبة إلىٰ الشيخ.[١] وكعادة مشايخ الطرق، ينسبون الشيخ إلىٰ الأشراف من آل البيت.

والذهبي يثني علىٰ الشيخ في نفسه فيقول: "الإمام القدوة، العابد، الزاهد، شيخ العارفين، أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي.. وكان قدم أبوه من بلاد المغرب، وسكن البطائح".[٢] "وكان إليه المنتهىٰ في التواضع والقناعة، ولين الكلمة والذل والانكسار والإزراء علىٰ نفسه وسلامة الباطن، ولكن أصحابه فيهم الجيد والرديء، وقد كثر الزغل فيهم، وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التتار العراق؛ من: دخول النيران، وركوب السباع، واللعب بالحيات. وهذا ما عرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه، فنعوذ بالله من الشيطان".[٣]

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٧٧، طبقات الشعراني ١/ ١٣٩.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٧٧.
(٣) العبر للذهبي ٣/ ٧٥.

وللشيخ مؤلفات تنسب إليه أوثقها عند الرفاعية:

❁ " البرهان المؤيد" جمعه من مجالس وعظه: شرف الدين بن عبد السميع الهاشمي الواسطي.(١)

❁ "حالة أهل الحقيقة مع الله" وهو تعليقات علىٰ أحاديث بأسانيد خاصة بأهل البيت لم تذكر في الصحيحين، وبعض الباحثين يشكك في نسبته.(٢)

وكما تقدم من كلام الذهبي، فإن الأتباع فيهم الرديء؛ الذين أدخلوا – بعدما غزت التتر بغداد – علىٰ الطريقة أمورا كوحدة الوجود، والحقيقة المحمدية، والغلو في الشيخ والقبور، والاستغاثة بغير الله تعالىٰ، وأكثروا من اختلاق كرامات للشيخ، هذا عدا ما اشتهروا به من المخاريق والشعوذة والسحر، وقد ناظرهم ابن تيمية وتحداهم فلم يثبتوا له، وبان دجلهم.(٣) هذا مع أنهم نقلوا عن الرفاعي إنكاره للاستغاثة بغير الله تعالىٰ في "البرهان المؤيد" و "حالة أهل الحقيقة مع الله"، حيث قال:

---

(١) الرفاعية لدمشقية ص١٢، المعارف المحمدية في الوظائف الأحمدية للصيادي ص ٦٥.

(٢) الرفاعية لدمشقية ص١٣.

(٣) دراسات في التصوف لظهير ص٢٢٠، الرفاعية لدمشقية، الطرق الصوفية للسهلي ص٨٩.

❁ "إذا اسـتعنتم بعبـاد الله وأوليائـه، فـلا تشـهدوا المعونـة والإغاثة منهم، فإن ذلك شرك".[١]

❁ " يـا سـادة، لا تجعلـوا رواقـي حرمـا، ولا قـبري بعـد مـوتي صنما، عليكم به سبحانه، لا يضر وينفـع، ويضـل ويهـدي ويقطـع، ويفرق ويجمع، ويعطي ويمنع إلا هو".[٢]

❁ ويذكر عن الله تعالىٰ أنه يقول: "ما مـن عبـد نزلـت بـه بليـة، فاعتصـم بمخلـوق دوني إلا قطعـت أسـباب السـماء مـن يديـه، ووكلته إلىٰ نفسه، ومـا مـن عبـد نزلـت بـه بليـة، فاعتصـم بـي دون خلقي إلا أعطيته قبل أن يسألني".[٣] وقـد نقلهـا دمشـقية في كتابـه "الرفاعية".[٤]

○ وله أيضا براءة من الحلاج، قال:" ينقلـون عـن الحـلاج أنـه قال: أنا الحق. أخطأ بوهمه، لو كان علىٰ الحق، ما قال: أنـا الحـق. يذكرون له شعرا يوهم الوحدة، كل ذلك ومثله باطل".[٥]

والطريقة لها انتشار في: العراق، والشام، ومصر.

---

(١) البرهان المؤيد ص٧٩.
(٢) البرهان المؤيد ص٥٢.
(٣) حال أهل الحقيقة مع الله ص١٢٤.
(٤) ص١٢٦-١٢٧.
(٥) البرهان المؤيد ص٢٦.

(الشاذلية)

نسبة إلىٰ الشيخ أبي الحسن الشاذلي، قال الذهبي: " الشاذلي أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار المغربي الزاهد شيخ الطائفة الشاذلية. سكن الإسكندرية وصحبه بها جماعة، وله عبارات في التصوف مشكلة توهم، ويتكلف له في الاعتذار عنها، وعنه أخذ الشيخ أبو العباس المرسي. توفي الشاذلي بصحراء عيذاب متوجهًا إلىٰ بيت الله في أوائل ذي القعدة" أي: سنة ٦٥٦هـ.[١]

ولد في المغرب الأقصىٰ ثم رحل إلىٰ تونس، تتلمذ في صغره علىٰ أبي محمد عبد السلام بن مشيش، واختلف في نسبه؛ فمنهم من نسبه إلىٰ الحسن بن علي، ومنهم مَن نسبه إلىٰ الحسين، ومنهم مَن نسبه إلىٰ غيرهما.[٢]

حكيت له كرامات كثيرة، كحال مشايخ الطرق، فيها أنواع من الغلو في الشيخ ومشايخ الطريقة، بنسبة التصرف والتدبير وعلم المغيبات والمنزلة العالية إليهم.[٣]

---

(١) العبر في خبر من غبر حوادث سنة ٦٥٦هـ، ٣/ ٢٨٢.

(٢) دراسات في التصوف لظهير ص٢٣٥.

(٣) دراسات في التصوف لظهير ص٢٣٥، والطرق الصوفية للسهلي ص٨٧.

❁ من ذلك قوله: "كنت أنتسب إلىٰ الشيخ عبد السلام بن مشيش، وأنا الآن لا أنتسب لأحد، بل أعوم في عشرة أبحر: خمسة من الآدميين: النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي. وخمسة من الروحانيين: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، والروح الأكبر".(١)

❁ له أوراد وأحزاب كحزب البر والبحر، فيهما مخالفات وشطحات، تولىٰ نقدها ابن تيمية في مؤلف مستقل مطبوع.

وقد أثرت عنه كلمات موفقة:

❁ " كل علم تسبق إليك فيه الخواطر، وتميل إليه النفس، وتلتذ به الطبيعة، فارم به، وإن كان حقا، وخذ بعلم الله الذي أنزله علىٰ رسوله، واقتد به وبالخلفاء والصحابة والتابعين من بعده".(٢)

❁ "إذا عارض كشفك الصحيح الكتاب والسنة، فاعمل بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقل لنفسك: إن الله تعالىٰ ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها لي في جانب الكشف والإلهام".(٣)

---

(١) لطائف المنن للسكندري ص ١٢٦، الطبقات للشعراني ٢/ ٧، جامع كرامات الأولياء للنبهاني ٢/ ١٧٦، قطبا المغرب لمحمود، دراسات في التصوف لظهير ٢٣٥.

(٢) شذرات الذهب لابن العماد ٥/ ٢٧٩، قطبا المغرب أبو الحسن الشاذلي لمحمود ص٩٧.

(٣) إيقاظ الهمم شرح الحكم لابن عجيبة، الطبقات الكبرىٰ للشعراني ٢/ ٥.

من مشايخ الطريق المقدمين:

❁ أبو العباس أحمد بن عمر المرسي الإسكندراني، توفي سنة ٦٨٦هـ، يعد الخليفة بعد الشاذلي، ادعىٰ صحبة الخضر، وله تأويل باطني، ولهم فيه اعتقادات غالية كالقطبية.(١)

❁ أحمد بن محمد بن عطاء الله السكندري المتوفىٰ سنة ٧٠٩هـ، وهو صاحب "لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن"، و"الحكم العطائية" وهي مجموعة من الحكم عددها ٢٦٤ حكمة.

❁ عبد الوهاب الشعراني المصري المتوفىٰ سنة ٩٧٣هـ صاحب: "الطبقات الكبرىٰ" و"الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية" و "اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر".

❁ يوسف بن إسماعيل النبهاني توفي سنة ١٣٥٠هـ، صاحب: "جامع كرامات الأولياء"، و"شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق".

والطريقة لها انتشار في: مصر والإسكندرية بخاصة، وطنطا، ودسوق، ثم سوريا، والمغرب، وليبيا، والسودان. ويقال: إنها أكثرها انتشارا.(٢)

---

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله، دراسات في التصوف لظهير ص٢٤٥.
(٢) الموسوعة الميسرة ١/ ٢٨٣، الطرق الصوفية ص٨٨.

الاتجاه السني في التصوف:

المتتبع للطرق الصوفية، ومن قبله لبدايات التصوف، لا يجد تصوفا مطابقا للسنة، مثل الذي يجده عند أهل الحديث الأولين؛ الذين قاموا في وجه البدع، وخطوا منهجا في مجادلة المبتدعة، لكن يجد فريقين:

❁ **الأول**: فلسفي اتحادي حلولي وحدوي، يؤمن بنظرية الفناء في الصفات والذات الإلهية، وهذا تجلىٰ في كلمات: البسطامي، وذي النون، والبغدادي، والنوري، والحلاج، والشبلي.

❁ **الثاني**: بدعي متلبس بأنواع من البدع القولية والعملية في الأوراد والذكر والمفاهيم، كعبادة الله بالمحبة من غير خوف ولا رجاء، والزهد في العلم والزواج، والجوع، وهذا منحىٰ عليه مثل: الداراني، والمحاسبي، والنخشبي، والروذباري، وأبي عثمان المكي، والجنيد. وبعض هؤلاء تؤثر عنهم كلمات موهمة كالتي يرددها الفريق الأول، فقد تخرج علىٰ معنىٰ الشهود لا الوحدة.

فالمصطلحات بين الفريقين مشتركة، والمسلك واحد، لكن الفرق في المعنىٰ والمضمون، فإن الذي يغلب علىٰ حال الفريق الثاني السلامة من النظريات الفلسفية للفناء، وإن تشابهت ألفاظهم، فإن بعضهم له مواقف مشهودة في الإنكار علىٰ هذا المسلك كالمحاسبي، وآخرون منهم لهم من الأحوال والأقوال ما يمكن اعتمادها دليلا علىٰ سلامة مسلكهم كالداراني والجنيد.

فبهذا للتصوف وجهان: فلسفي، وبدعي. فأما وجه يعتمد عليه لتقديمه ممثلا للسنة، فهذا هو العزيز، وقد أشار ابن تيمية إلىٰ نقص أحوالهم، وأنها في البدعة نظير الكلام، فيما كتبه عنهم.

وحقيقة الأمر: أن الملتزم الحياد في دراسته التصوف، بكافة جوانبه: المصطلح، والماهية، والتاريخ، والتراجم، لا يمكنه أن يشهد له بتمثيل السنة، في أي مرحلة من مراحله، أو طريقة من طرقه، إلا أن يكون مفهوم السنة عنده مختلفا عما عند أهل الحديث؛ الذين قاموا في وجه: الخوارج، والشيعة، والقدرية، والمرجئة، والجهمية، والمعتزلة، والأشعرية. غاية ما يمكن الشهادة به:

❁ أن في المتصوفة: أهل صدق، وعبادة، وزهد، وورع علىٰ شيء من البدع المخالفة للسنة. فهم زهاد عباد، وهذا هو بدؤهم وطريقتهم.

❁ وأن التصوف حين ولج بلاد المسلمين – وهو فكر أجنبي – وجد طريقة العبّاد أقرب إليه، وأسهل عريكة، من طريقة أهل الحديث العلماء؛ الذين التزموا طريقة السنة في الزهد والعبادة، فلم يكن عليهم سبيل، ولا طريق لاستغلالهم لزرع التصوف في جسد الأمة، فزهاد العبّاد قبلوا به وتلبسوا، وزهاد العلماء رفضوه وقاوموه.

وهكذا، فإن التمثيل السني في الوسط الصوفي ضعيف لا يرقىٰ، فالبدعة غالبة عليهم، لكن إذا كان كذلك، فكيف نفعل إذن بأقوالهم في لزوم التقيد بالكتاب والسنة؟ وهذا مشهور عنهم، فما من إمام إلا وله في هذا كلمة، وقد جمع ونقل كثيرا منه القشيري في كتابه "الرسالة"، حتىٰ أئمة الطرق لهم كلمات في هذا؟

نعم لا ينكر هذا أحد؛ لأنه مسطور منسوب إلىٰ أعيان، فصار حقيقة من الحقائق، وأكثر من ذلك:

❁ فإن بعضهم كتب في بيان العقيدة، فجاء موافقا لقول السلف، كالمعتقد الذي كتبه عبد الله بن خفيف، ونقل أكثره ابن تيمية في "الحموية".

❁ وكما ذكر ونقل عن أبي عمرو بن عثمان المكي.

❁ وما نقله ابن تيمية أيضا في "الاستقامة" عن بعض الأئمة من سلامة التصوف من علم الكلام.

❁ وهذا أبو إسماعيل الأنصاري الهروي له كتاب في ذم الكلام.

❁ وأبو عبد الرحمن السلمي صاحب "طبقات" كتب قبله مثله.

❁ وقد مر بنا إنكار الجيلاني علىٰ السهروردي تعلمه الكلام، ورفضه الفلسفة.

❁ عدا أقوالهم في التزام الأمر والنهي كما ورد عن الجنيد، وقبله البسطامي وغيرهما.

❁ والتزام التوحيد وسؤال الله تعالىٰ وحده، وترك سؤال المخلوق، كما عن الجيلاني والرفاعي.

كل هذا ألا يلزم المحايد أن يقر بوجود اتجاه سني سلفي في الطريقة الصوفية؟

نعم، كل هذا حق، غير أنها مواقف وأقوال لم ترق أن تغير مسار التصوف جذريا، فبقي تأثيرها محدودا في أفراد وأعيان؛ وله لم تر اتباعا وعملا بها في الطرق أو طريقة بعينها، حتىٰ يمكن أن يشار إليه كطريقة صوفية سنية سلفية، بل قد تجد عند طريقة امتثالا في جانب، كالطرق التي جاهدت المستعمر، دون جوانب أخرىٰ، وسبب عدم تأثير هذه الأقوال في المتصوفة هو: التأويل الذي دخل عليهم من باب الكلام، فقد تلبس عامة المتصوفة بالأشعرية، ومنهم الذي تلبس بالفلسفة، ومبدأ التأويل عند الاتجاهين أصيل، فهم يقرون بالكتاب والسنة كمصدر، لكن يختلفون علىٰ تأويله؛ وله ترىٰ الصوفي يأتي بالأعاجيب والمنكرات في المعاني، ثم ينسب كل ذلك إلىٰ دليل من الوحي، يفسره من طريق التفسير الإشاري أو الباطني؛ ليثبت ما أراد، ويرىٰ في ذلك التزامًا بالشريعة.

فحال المتصوفة في هذه الدعوىٰ كحال الأشعرية والفلاسفة، فكلهم لا يمارون في القول باتباع الكتاب والسنة، لكن يختلفون بتأويله، فالتأويل هو باب الشر المستطير، الذي استعمل لإفساد الأقوال والأعمال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران:٧].

تاسعا: المعاصر

لا خلاف أن الصوفية يمثلون جزءا كبيرا في الأمة الإسلامية، قد يكون السواد الأعظم منها، وأقصد بذلك كل من انتسب إلىٰ التصوف، سواء بعلم أو بجهل، ولو بنسب ظاهري، وبهذا نفهم أننا عندما نتكلم عن هذه الفرقة، فإنما نتكلم عن فرقة راسخة الجذور، مؤثرة غاية التأثير في سلوك فئام من الأمة، وإذا كان كذلك فمن المهم أن نعرف حقيقة التصوف المعاصر، وهل هو عين التصوف القديم أم تجدد فيه شيء؟[1]

وللوقوف علىٰ حقيقة هذا الأمر: نأخذ محيىٰ الدين ابن عربي الحاتمي الطائي مثلا، لنرىٰ موقف الصوفية منه، فإن تولوه فهم كما هم، امتداد لمن سبقهم من المتصوفة، وإن تبرءوا منه فقد أصلحوا خطأ كبيرا، ولا يعني ذلك سلامة منهجهم بالكلية.

---

(١) لا أظن أننا بحاجة إلىٰ إثبات الوجود الكثيف للمتصوفة في الأمة، فهذا الأمر أشهر من أن يستدل له، ويكفي هنا أن أشير إلىٰ مرجع واحد من باب التوثيق، وهو الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ١/ ٢٥١-٣٣٤، مادة (صوفية).

وقـد اتخـذنا ابـن عربـي مقياسـا لمعرفـة حقيقـة تصـوف المعاصرين؛ لكونه يمثل رأس التصوف تقريرا وتنظيرا وتقعيدا، فهو نقطة تحول في تاريخ التصوف، ليس تحولا من ناحية أصل الفكرة، بل من ناحية تطويره وتفصيله وشرحه والإفاضة فيه، باستخدام كافة الأدوات من نصوص شرعية، وأفكار بشرية، وثقافات أجنبية: هندية، ومجوسية، ويونانية، ونصرانية، ورموز مثالية، وخيال واسع؛ إذ لم يسبقه أحد من المتصوفة إلىٰ ذلك، ولم يلحقه أحد في ذلك، ولمعرفة حقيقة تصوف المعاصرين، سنطرح فكر ابن عربي ومذهبه، ثم نرىٰ موقف المعاصرين منه؛ فكما قلنا: إذا كانوا علىٰ الولاء له، باعتناق مذهبه، وتعظيم شأنه، فهم كما هم، لم يبدلوا ولم يصححوا، وإن أعلنوا البراءة منه، ومن مذهبه، فقد نجوا من زندقته، فإلىٰ فكر ابن عربي:

منزلة ابن عربي عند المتصوفة المعاصرين.

إن حجر الزاوية، والركيزة الأساسية، ونقطة الدائرة في فكر ابن عربي هو (الإنسان الكامل)، وهو أول من استعمل هذا التعبير في تاريخ الإسلام، هذا (الإنسان الكامل) هو التعين الأول، نائب عن الله، ظل الله، وهو في مرتبة برزخية بين الخلق والحق، وله صفات الخلق وصفات الحق، فهو موضع نظر الإله، وبه يدبر الأمر، وهو الواسطة بين الخلق والخالق، فبدونه ليس للخلق طريق إلىٰ الله تعالىٰ، وقد يسميه الخليفة أو القطب أو الحقيقة المحمدية أو النور المحمدي.

يشير بذلك إلىٰ أن أكمل تجل لله تعالىٰ هو النبي محمد ﷺ، وهو الإنسان الكامل الأول، ثم إنه ظهر في صورة الأنبياء، ثم الصالحين، في كل زمان ومكان، يصح أن يكون ذكرا أو أنثىٰ.

إن ابن عربي يقرر أن جميع المخلوقات إنما هي صورة الله تعالىٰ، فهي كالمرآة يتجلىٰ فيها الإله، كل بحسبه، والإنسان الكامل امتاز عن المخلوقات بكونه حاز وفاز بالمجموع، ففيه كل صفات الخالق وكل صفات المخلوق، وهذا هو الفرق بينه وبين سائر المكونات الأخرىٰ، فعقيدته في وحدة الوجود لا تقوم علىٰ فكرة الحلول أو الاتحاد، إنما تقوم علىٰ فكرة الصورة والتجلي، فليس هناك ثمة انفصال أصلا، كيما يحدث اتصال، بل هو اتصال أزلي دائم أبدي، فكل المخلوقات صورة الله تعالىٰ، والله يتجلىٰ فيها، كل بحسبه.

ومن هنا كان يردد مقولة: "ليس في الإمكان أحسن مما كان"، ومعناه: إذا كان هذا العالم بما فيه هو صورة الله تعالىٰ، والله يتجلىٰ ويتبدىٰ فيه، فالعالم إذن هو الله من حيث الصورة، وإذا كان العالم صورة الله، فكيف يمكن أن يخلق أحسن مما خلق؟! إن ذلك يلزم منه أن يكون العالم أحسن من الله، وهو مستحيل، لذا قيل: "ليس في الإمكان أحسن مما كان".

فهذا فكر ابن عربي باختصار[١].

وكما رأينا أنه يقرر أن المخلوقات صورة الله تعالىٰ:

---

(١) انظر: المعجم الصوفي ١/ ١٥٨.

فهل علىٰ هذا دليل؟

الـجواب: لا، وكذلك العقل يبطل هذا القول، لما يلزمه من لوازم فاسدة؛ إذ يلزم منه أن يكون الفاسد والوضيع والرديء من المخلوقات صورة الله تعالىٰ سبحانه، ولما يلزم من التشبيه أيضا، ولسنا في مقام نقض مذهبه، لكن الذي نريد قوله هنا: ما موقف الصوفية المعاصرين من ابن عربي؟

ثمة فئات وطرق صوفية وأفراد ومشايخ، قلوا أو كثروا، يتولون هذا الرجل، ويعظمونه بطريقة غالية، ويسعون في نشر تراثه وفكره، نذكر منهم:

١- الدكتور محمود غراب، الذي خدم فكر ابن عربي خدمة كبرىٰ، فله كتاب: (الإنسان الكامل والقطب الغوث الفرد من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي)، وكتاب (الفقه الأكبر عند الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي)، وكتاب (رد ابن العربي علىٰ ابن تيمية)، وكتاب (الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي- ترجمة حياته)، وكتاب (شرح فصوص الحكم)، وغير ذلك..

٢- الدكتورة سعاد الحكيم، وهي كسابقها شديدة العناية بابن عربي، ولقد وضعت معجما أسمته: (المعجم الصوفي)، وحقه أن يكون: (المعجم الصوفي من كلام ابن عربي) إذ كله عرض لمصطلحات ابن عربي.

٣- الدكتور عثمان يحيىٰ؛ له رسالة دكتوراه كبيرة في مجلدين عن مؤلفات ابن عربي.

٤- الدكتور أبو العلا عفيفي، الذي نشر أهم كتب ابن عربي وخلاصة فكره، ألا وهو: (فصوص الحكم)، لكنه أقرب إلىٰ الحياد في هذه القضية من سابقيه، ولا يظهر فيما كتبه اعتناق لفكر ابن عربي، وإنما دافعه البحث العلمي المجرد.

ذلك بالنسبة لمن اعتنوا به، من جهة نشر تراثه من الأفراد، ثم إن هناك هيئات قد اضطلعت بمهمة تحقيق تراث ابن عربي ونشره، منها معاهد ومراكز، ومنها مجلات، ومنها دور كتب، ومنها رسائل، ومنها مواقع في الإنترنت، حسب ما يلي:

١- في لندن معهد مختص بتراث ابن عربي، وله فروع في كثير من بلدان العالم، وفي أسبانيا مركز للغرض ذاته، ولهذه المعاهد والمراكز ندوات ومحاضرات وتحقيقات في هذا المجال.

٢- عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق تصدر مجلة التراث العربي، وفي عدد ربيع الآخر ١٤٢١هـ صدرت بحوث عن فكر ابن عربي استغرقت ثلثي موضوعات المجلة.

٣- في بيروت دار دندرة معنية كثيرا بنشر الدراسات والبحوث المتعلقة بابن عربي.

٤- طرحت في الجامعات رسائل لتحقيق تراث ابن عربي، كرسالة عثمان يحيىٰ عن مؤلفات ابن عربي، ورسالة في الدكتوراه عنوانها: (الفناء والحب الإلهي عند ابن عربي) للدكتور أحمد محمود الجزار.

٥- مواقع في الإنترنت حديثة عن ابن عربي.

ثـم إن فكـرة (الإنسـان الكامـل) التـي هـي كمـا ذكرنـا مـن قبـل خلاصـة ومحـور فكـر ابـن عربـي لهـا حضـور واضـح في فكـر المتصوفة المعاصرين، فقد تعددت المؤلفات التي اختصت بهذه الفكرة.

وقد تقدم آنفا كتاب الدكتور محمود غراب: (الإنسان الكامل والقطب الغوث الفرد من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي).

كذلك كتب غازي عرابي كتابا عنوانه: (الكامل: محاورات في الفلسفة الصوفية)، وكتابا آخر عنوانه: (الإنسان الكبير)، وهو شديد الصلة بموضوع الإنسان الكامل.

كما كتب عبدالمنعم محمد شقرف كتابا عنوانه: (الإنسان الكامل والحضارة العالمية في الرسالة المحمدية).

ونشر الدكتور عبد الرحمن بدوي جملة بحوث لمستشرقين غربيين ومتصوفة، في كتاب حمل عنوان: (الإنسان الكامل في الإسلام)، عدا بحوث أخرىٰ للمستشرق نيكولسون عن (نظرية الإنسان الكامل عند الجيلي)، وكذا (فكرة الشخصية في التصوف) نشرها الدكتور أبو العلا العفيفي ضمن كتاب (في التصوف الإسلامي وتاريخه).

بالإضافة إلىٰ ما كتبه الدكتور أبو العلا أيضًا في هذا المعنىٰ تحت عنوان: (نظريات الإسلاميين في الكلمة) في مجلة كلية الآداب في مصر.

وكذلك ما كتبه الأب ميشال الحايك في مجلة المشرق بيروت ١٩٥٨م تحت عنوان: (الإنسان الكامل وميزته النشورية)[١]، وغير ذلك.

إذن فكر ابن عربي حي بين أظهرنا، وهو الفكر الذي ارتضاه المتصوفة، واعتقدوه، وجادلوا عنه، بالرغم من انحرافه وضلاله، وكثير منهم يدعي أن الخصوم لم يفهموا كلامه لدقته، بينما هو واضح وضوح الشمس، وإذا ساغ أن نلتمس العذر لابن عربي فيما أتىٰ به من كفر، إذاً لساغ أن يلتمس العذر لفرعون في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]!

وبشكل مجمل: فإن فكر ابن عربي يدور حول القضيتين التاليتين:

١- التجلي الإلهي في الصور الكونية، وهو الحلول العام (وحدة الوجود)، وفي الإنسان خاصة، وهو الحلول الخاص.

٢- التشبه بالإله، أو التخلق بأخلاق الله؛ وبصورة أخرىٰ: الفناء عن الصفات البشرية والذات، والبقاء بالصفات الإلهية والذات.[٢]

---

(١) انظر: المعجم الصوفي ١/ ١٦٦ ، ومما يشار إليه ههنا كتابة د.مصطفىٰ عشوي بحثا بعنوان: (الإنسان الكامل الصوفي: دراسة نقدية)، في مجلة التجديد التي تصدرها الجامعة الإسلامية في ماليزيا العدد السابع لسنة ١٤٢٠هـ.

(٢) قال ابن تيمية عن ابن عربي: "مقالته مبنية علىٰ أصلين: =

وهي القضايا التي بحثنا في مصادرها في الفكر القديم، وإذا كان هناك اليوم من يدعو إلىٰ فكر ابن عربي، ويسعىٰ في إحيائه، كما تبين لنا آنفا، فهو دليل علىٰ أن الفكر الصوفي حاضر موجود اليوم، كما كان قديما، سواء بسواء.

لكن ههنا أمر مهم: ليس كل من سعىٰ في نشر تراث الصوفية، كابن ابن عربي وغيره، فلا بد أن يكون حلوليا اتحاديا وحدويا، كلا.. فإن بعضهم يفعل ذلك لمجرد البحث العلمي ونشر التراث، بغض النظر عن مضمونه، ومثل هؤلاء لا تجد في كلامهم انتصارا لهذا الرأي، بل يكتفون بالعرض، لكن ذلك لا ينفي إسهامهم في نشر الفكرة، والدكتور أبو العلا عفيفي مثل علىٰ ذلك.

أمثلة من اعتقادات المتصوفة المعاصرين:

بعد ثبوت حضور ابن عربي بين المتصوفة المتخصصين اليوم، وإيمانهم العميق بفكره: ننظر في هذه الفكرة التي تتضمن الحلول والاتحاد الوحدة، هل لا زالت الفكرة باقية؟

= أحدهما: أن المعدوم شيء ثابت في العدم، موافقة لمن قال ذلك من المعتزلة والرافضة...

الأصل الآخر: فقولهم أن وجود الأعيان نفس وجود الحق وعينه". الفتاوىٰ ٢/ ١٤٣،١٦٠

فالأصل الثاني هو الذي يتضمن فكر ابن عربي بالخصوص، فهو غايته وهدفه الأول والأخير.

ينقل الدكتور محمد جميل غازي عن محمد عثمان البرهاني، وهو صوفي سوداني من المعاصرين، أنه قال في كتابه (تبرئة الذمة في نصح الأمة): أن الله هو محمد، وأنه لا فارق على الإطلاق؛ ويرى أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، معناه أن محمدا هو الله تعالى، ويقول: "إن من أسماء الله الحسنى: محمد"(١).

وبعض الصوفية اليوم، مازالوا يتعبدون بوحدة الوجود، ومازالت هذه الأفكار هي التي تسود حلقاتهم، فمن أوراد الشاذلية قولهم:"زج بي في بحار الأحدية، وانشلني من أوحال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة، حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها".(٢)

وعامة الصوفية اليوم لا زالوا يرددون في الموالد وغيرها ما يقوله البوصيري في البردة:

يا أكرم الرسل ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم(٣)

---

(١) الصوفية الوجه الآخر، محمد جميل غازي ص٦١، وقد أشار إلى خبر هذا الرجل أيضا الدكتور التفتازاني في مجلة التصوف الإسلامي عدد٨، ص٧.

(٢) أبو الحسن الشاذلي، على عمار ٢/ ٢١٠، وانظر: الصوفية الوجه الآخر، محمد جميل غازي ص١٨.

(٣) ديوان البوصيري ص٢٤٨.

وما هذا التضرع إلىٰ النبي ﷺ، ووصفه بكونه يعلم فوق ما في اللوح والقلم، في هذه الأبيات إلا الاعتقاد فيه أنه يمثل (الإنسان الكامل) بحسب الفكرة الفلسفية، فهو البرزخ بين الخلق والحق، والله تعالىٰ جعله واسطة، فبه تقضىٰ الحوائج، وتنال الرغائب، وتنفرج الكرب؛ ولا يلتفت إلىٰ من يعمل علىٰ تأويل ذلك بتكلف ظاهر، كأن يقال: إن ذلك التضرع يكون يوم القيامة، فما أفسده من تأويل، فإذا كان يكون يوم القيامة، فما بالهم تقدموا بالدعاء والضراعة به في الدنيا؟!

وأشعارهم الكثيرة حافلة بمثل هذا النوع من الأبيات التي تجسد حقيقة مفهوم الإنسان الكامل في شخص النبي ﷺ، مما يؤكد تأثرهم بهذه الفكرة، ورسوخها فيهم، ومما يؤكد هذه الحقيقة أننا لم نسمع منهم براءة من ابن عربي وابن الفارض ومن كان في حكمهم، فإما أنهم لا يذكرونهم بشيء، أو يتأولون كلامهم بما ينفي عنهم تهمة الوحدة والاتحاد، بدعوىٰ دقة كلامهم، الذي لأجله لم يفهم الخصوم ما أرادوا فأساءوا الظن بهم!!، زعموا!!.

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام: أنه قد تقرر أن التصوف في معناه الدقيق هو: الفناء.

وعلىٰ ذلك كلام الصوفية، وهذا هو اعتقاد المعاصرين، وقد تقدم كلامهم في هذا، فقد نقلنا كلام أبي الوفا التفتازاني، وكلام عبدالحليم محمود، والشيخ محمد زكي إبراهيم.

كذلك عرف عن الصوفية تحقير نعيم الجنة، وكذا الاستهانة بعذاب النار، واتخاذ دعوىٰ محبة الله تعالىٰ لذاته سلما لذلك، يقول الشيخ محمد زكي إبراهيم رائد العشيرة المحمدية:

"يا ولدي، إن كنت تريد الدنيا والجنة فعليك بفقيه، وإن كنت تريد رب الدنيا ورب الجنة، فهلم إلينا، نعم من وجد الله فما فقد شيئا، وإن فقد، ومن فقد الله فما وجد شيئا، وإن وجد، فشئون الدنيا كلها كشئون الآخرة كلها، كل من عند الله"[(١)].

فهذه الفكرة المبتدعة لا زالت حاضرة في التفكير الصوفي، ولأجلها زعموا أنهم لا يبتغون الجنة، ارتفاعا بهمتهم إلىٰ الأعلىٰ. فهل كان القرآن وهو يرغب في العمل لأجل الجنة داعيا إلىٰ ما هو دنيء؟!

---

(١) مجلة التصوف الإسلامي الصادرة عن المجلس الصوفي الأعلىٰ في مصر، عدد رجب ١٤١٤هـ ص٤٢.

تنبيه: في مقدمة عبد الرحمن الوكيل وحواشيه علىٰ كتاب: "مصرع التصوف" إفادات مهمة عن طائفة من المعاصرين من المتصوفة وأقوالهم في: الحلول، والاتحاد، ووحدة الوجود. انظر: ص١، ١٥، ٤١ حاشية (٥).

ولست بصدد استقصاء كل الأفكار، لكن حسبي إشارات تدل علىٰ المقصود.

بعدما سبق أستطيع القول بأن الأفكار الصوفية القديمة هي نفسها الموجودة اليوم، وما يحاول الصوفية إخفاءه غير خاف، فالأمر واضح، فما عند الصوفية لم يتغير ولم يتطور منذ عهد ابن عربي، ولا أعتقد أن الأفكار الصوفية، وهي التي نشأت وقامت في بلاد الوثن والصنم، ثم انتقلت إلىٰ المسلمين ليبتلي الله بها عباده، قد حدث فيها شيء من التغيير إلىٰ الأحسن، وذلك ظاهر من واقع ما عليه أهل التصوف، والله يهدي من يشاء من عباده إلىٰ صراطه المستقيم.

عاشرا: الموقف

الذين تكلموا في التصوف علىٰ ضربين:

الأول: ناقد علىٰ التفصيل، وأبرزهم: ابن الجوزي، وابن تيمية، والشاطبي، والبقاعي، وملا علي القاري، وهؤلاء مختلفون في طرائقهم، فمنهم المتوسع، ومنهم دون ذلك، ومنهم الذي نقدهم في أشياء دون أخرىٰ:

❁ فأما المتوسع فابن تيمية؛ إذ خصص كتبا فيهم: "المجلد العاشر والحادي عشر من الفتاوىٰ"، و "الاستقامة" للرد علىٰ القشيري، و "بغية المرتاد" للرد علىٰ الاتحادية، و "الرد علىٰ الشاذلي"، عدا منثورات هنا وهناك. وقد جرىٰ علىٰ قاعدة في رده هو: التفريق بين التصوف والمتصوفة. يلمس هذا من تأمل كلامه، فالتصوف يحكم عليه بالبدعة، والمتصوفة يحكم عليهم كل بحسب حاله، فلم يشملهم بنقد عام؛ وله جاء ثناؤه علىٰ بعضهم، وذمه لآخرين. ويعد أوسع من رد ونقض التصوف، فلم يبق فيه شيئا من معتقد أو سلوك إلا وناله بالنقد.

❁ ومثله ابن القيم؛ فقد خصص كتبا: "طريق الهجرتين" للرد علىٰ ابـن العريـف، و"مـدارج السـالكين شـرح منـازل السـائرين" للهـروي، و"إغاثـة اللهفـان"، وقـد أتـاح لـه الكتابـان الأولان تتبـع مسائل الصوفية العقدية والسلوكية كافة بالنقد؛ لأنهما وضعا لبيـان خطة الصوفية في السلوك.

❁ دونهما في الكمية ابن الجوزي في كتابه "تلبـيس إبلـيس"، و "صفة الصفوة". مع تتبع لمسائل عديدة في السلوك والمعتقد، غيـر أنه لم يستوعب.

❁ فأمـا الشـاطبي فقـد تعـرض لهـم في كتابـه "الاعتصـام" في مواضـع منـه، وكلامـه مقـارب لابـن تيميـة مـن حيـث التفريـق بـين المتقـدمين والمتـأخرين، مـع التنبيـه علىٰ فضـل المتقـدمين، ولـم يستوعب أكثر المسائل، وله ثناء علىٰ التصوف كأصل.

❁ وأما البقاعي فقد قصر كتابه "تنبيـه الغبـي في الـرد علىٰ ابـن عربي" كما هو العنوان - ومن كان علىٰ مذهبه كابن الفـارض - في مسائل الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، وقد حط عليهم.

❁ قريـب منـه مـلا علـي القـارئ في كتابـه "الـرد علىٰ القـائلين بوحدة الوجود"؛ فقد خصصه بابن عربي، ولـم يكن لـه عنايـة ببقيـة المسائل؛ إذ له ميل إلىٰ التصوف.

الثاني: ناقد على الجملة؛ أي: في كلمات، وهذا حال أكثر المتقدمين، منهم المعاصرون للتصوف في القرن الثالث، كـ: مالك، والشافعي، وأحمد، وأبو زرعة. إلى المتأخرين، كـ: ابن الحاج، والطرطوشي.

❁ مالك: قال رجل من أهل نصيبين: يا أبا عبد الله، عندنا قوم يقال لهم: الصوفية. يأكلون كثيرا، ثم يأخذون في القصائد، ثم يقومون فيرقصون؟ فقال مالك: أصبيان هم؟ قال: لا. قال: أمجانين؟ قال: لا، قوم مشائخ وغير ذلك عقلاء. قال مالك: ما سمعت أن أحدا من أهل الإسلام يفعل هذا.[١]

❁ الشافعي: قال: "لو أن رجلا تصوف من أول النهار، لم يأت عليه الظهر إلا وجدته أحمق"، وقال: "لا يكون الصوفي صوفيا حتى يكون فيه أربع خصال: كسول، أكول، نئوم، كثير الفضول"،[٢] وقال: "ما لزم أحد الصوفيين أربعين يوما فعاد عقله أبدا"،[٣] وقال: "تركت بالعراق شيئا يقال له: التغبير، أحدثه الزنادقة، ويصدون الناس عن القرآن".[٤] والتغبير: السماع.

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ٢/ ٥٤.
(٢) مناقب الشافعي ٢/ ٢٠٨.
(٣) تلبيس إبليس ص٣٧١.
(٤) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلال ص٣٦، الحلية ٩/ ١٤٦، تلبيس إبليس ص ٢٤٤.

❁ أحمد: قال: "التغبير محدث". وسئل عن التغبير: إنه ترق عليه القلوب، فقال: "هو بدعة". (رواه الأثرم) وسئل عن الحارث المحاسبي، فقال: "حذروا من الحارث أشد التحذير، الحارث أصل البلية، ذاك جالسه فلان وفلان وأخرجهم إلىٰ رأي جهم، ما زال مأوىٰ أصحاب الكلام حارث بمنزلة الأسد المرابط، انظر أي يوم يثب علىٰ الناس".[١]

❁ أبو زرعة الرازي: قال الحافظ سعيد بن عمرو البردعىٰ: "شهدت أبا زرعة - وقد سئل عن الحارث المحاسبىٰ وكتبه - فقال للسائل: إياك وهذه الكتب، هذه كتب بدع وضلالات، عليك بالأثر، فإنك تجد فيه ما يغنيك. قيل له: في هذه الكتب عبرة. فقال: من لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه الكتب عبرة، بلغكم أن سفيان ومالكا والأوزاعي صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس، ما أسرع الناس إلىٰ البدع!". قال الذهبي: "مات الحارث سنة ثلاث وأربعين ومائتين. وأين مثل الحارث؟! فكيف لو رأىٰ أبو زرعة تصانيف المتأخرين كالقوت لأبي طالب، وأين مثل القوت؟! كيف لو رأىٰ بهجة الأسرار لابن جهضم، وحقائق التفسير للسلمي؟! لطار لبه. كيف لو رأىٰ تصانيف أبي حامد الطوسي في ذلك علىٰ كثرة ما في الإحياء من الموضوعات؟!

---

(١) تلبيس إبليس ص ١٦٦-١٦٧، الخلال في السنة.

كيف لو رأىٰ الغنية للشيخ عبد القادر؟! كيف لو رأىٰ فصوص الحكم والفتوحات المكية؟! بلىٰ لما كان الحارث لسان القوم في ذاك العصر، كان معاصره ألف إمام في الحديث، فيهم مثل أحمد بن حنبل، وابن راهويه، ولما صار أئمة الحديث مثل ابن الدخميسىٰ وابن شحانة كان قطب العارفين كصاحب الفصوص وابن سفيان. نسأل الله العفو والمسامحة آمين".[1]

هذه أقوالهم، والأقوال كثيرة لم نتتبعها، وقد لوحظ علىٰ عامة كتب الفرق: "المقالات" للأشعري، و"الفرق بين الفرق" للبغدادي، و"الفصل" لابن حزم، و"الملل والنحل" للشهرستاني، و"التبصير في الدين" للإسفراييني: أنهم لم يخصصوا التصوف بفرقة، بل إن ذكره بعضهم، فإنما يذكر أوصافا، كـ: الحلولية، والحلاجية، والإباحية. إلا ما كان من الرازي في "اعتقادات فرق المسلمين والمشركين" فإنه خصهم بفرقة سماها باسمهم، كذا السكسكي في "البرهان" وإن كان ليس مصنفا معتمدا، فعدم الذكر له مغزىٰ، كأنهم لا يعدونهم فرقة بدعية، بل هم ضمن أهل السنة والجماعة، وهذا يحتاج إلىٰ تفصيل؛ فالتصوف عند المسلمين – لا في حقيقته– علىٰ ثلاثة أنحاء: حلول، وغلو، وبدع.

---

(١) ميزان الاعتدال للذهبي ١/ ٤٣١.

❁ **فأما الحلول والفناء**، وهو حقيقة التصوف كما تقدم؛ فإن من قال به نسب إليه، فقيل عنهم في هذه الكتب: حلولية، اتحادية، حلاجية. ولم يوصف به التصوف؛ كأنهم يبرءون التصوف منه، وهذا مذهبهم، بخاصة أن من اتهم بالحلول كان يعتذر عنه بأعذار: إما الشطح والسكر، أو عدم فهم مراده. فلا يثبت عليه شيء.

❁ **وأما الغلو**، فإنه شاع فيهم: دعاء الأولياء، والاستغاثة بهم، والتقرب إليهم بالنذر، والذبح. وهذا شرك في الألوهية، لكن لما كان عامة المصنفين في الفرق من الأشعرية، فإنهم لا يعدون هذا شركا، إلا بشرط اعتقاد الربوبية، ومع أن ألفاظ الصوفية بنسبة التدبير والتصريف وعلم الغيب للأولياء كثيرة معلومة، إلا أن هؤلاء المصنفين عموا عنها! فلم يعد شركهم في الألوهية في اعتبارهم سببا للفرقة، ولم يلتفتوا لشركهم بالربوبية.

❁ **وأما البدع** في الأوراد والذكر خاصة، فهذا مما يدخله التأويل عندهم، وتخريجه على أصل من السنة، فهم يتوسعون فيه، ولا يعدونه من البدع.

وبهذه التخريجات، لم يدرج التصوف ضمن الفرق الثنتين وسبعين فرقة المتوعدة.

يضاف إلى هذا: ارتباط هؤلاء المصنفين بالتصوف، وقد علم ارتباط الأشعرية بالتصوف، لا، بل إمامهم الأشعري نفسه

من مريدي الجنيد، يقول السبكي عنه:[١]

فلقد تلقى حسن منهجه عن الأشياخ أهل الدين والعرفان لم لا يتابع هؤلاء وشيخه الشيخ الجنيد السيد الصمداني

فإذا كان عامة الأشعرية على مذهب التصوف، وفيهم مصنفون للفرق والمقالات، فمن المفهوم حينئذ: لم تركوا تصنيف التصوف كفرقة من الفرق، إلا ما كان من الرازي، وقد عرف مخالفته للأشاعرة في مسائل عدة.

فالتصوف حقه أن يكون فرقة من الفرق؛ لبينونته الظاهرة عن السنة والجماعة، لكن ههنا ملحظ جدير بالذكر، هو: أنه ولو قلنا كذلك، إلا أن هذا لا يعني تصنيف كل من انتسب إلى التصوف ونسبته إلى البدعة، لعلة مهمة: أن أكثر هؤلاء من العامة لا خبر لهم بمراد التصوف من الفناء والحلول، ولا علم لهم بأن الغلو في الأولياء شرك، فأكثر ما هم عليه من بدعة هي: الأوراد. فهم في الجملة على الفطرة والإسلام، وعقيدة أهل السنة والجماعة، فلا يخرجون من هذا إلى البدع إلا بالعلم، والعلم عندهم مفقود قبل إقامة الحجة عليهم، فلذا هم باقون في أهل السنة والجماعة، وإن انتسبوا لشيء من هذه الطرق، إلا أن يكون من الخاصة العارفين بأسرار الطريقة، المخالفين للسنة عن علم.

---

(١) طبقات الشافعية ٣/ ٣٨٠.

"إن الصوفية أشبه بمادة هلامية رخوة، فهم كقول الجنيد: "لون الماء لون إنائه".[١] فترىٰ فيهم: السلفي، والأشعري، والمعتزلي، والشيعي أيضًا، كما أنك ترىٰ التصوف في: البوذية، والمانوية، والصينية، حتىٰ عند اليهود والنصارىٰ، فهذا مما يحير عند تصنيفهم للوهلة الأولىٰ! لكن المدقق يدرك دوران التصوف علىٰ فكرة محددة هي: الفناء في الصفات والذات الإلهية، بالحلول والاتحاد، حتىٰ يبلغ فكرة وحدة الوجود، ثم لا بأس بالتمثل بكل لباس؛ الملائم منه والمنافر؛ فأمّا الملائم فذاك الذي لا يعارضه النتيجة، وأما المنافر فإنه لا يزال به حتىٰ يحمله علىٰ الموافقة، وإنما يسعىٰ في تغييره من طريق التأويل الفلسفي الذي أتقن فنونه.

فحاصل الأمر أن المتصوفة في الإسلام علىٰ أربعة أنحاء:

❁ سلفية، وهؤلاء في المتقدمين أكثر؛ كمحمد بن خفيف، وأبي عمرو بن عثمان المكي، ثم أبي إسماعيل الهروي، وعبد القادر الجيلاني، لكنهم في المتأخرين أعز من المعدن الثمين.

❁ وأشعرية، وهم أكثر الخاصة من المتصوفة؛ كالقشيري، والغزالي، فالاتحاد الأشعري الصوفي بات معروفًا مشهورًا، غير مستنكر منهم.

---

(١) الطبقات الكبرىٰ ١/ ٨٥. قال الشعراني: "أي: هو بحكم وقته".

❁ وفلاسفة، وهم كثير من الخاصة؛ كالحلاج، وابن عربي، والتلمساني، وابن الفارض، فهؤلاء زنادقة على ملة أرسطو، وأفلاطون، وفلاسفة الهند والفرس.

❁ وعامة ليس لهم مذهب عقدي سوى الانتماء السلوكي للتصوف، وفيهم بدع الذكر، والرقص، والسماع، والموالد، وتقع منهم أفعال شركية وبدعية عند القبور.

وفي هذا بيان: أن سواد المتصوفة هم من "السنة"؛ فالسلفيون قد عرفنا حالهم، والعامة منهم يقع تصنيفهم في العوام من أهل السنة؛ باعتبار أن الأصل في كل من شهد الشهادتين وأتى بأركان الإسلام والإيمان - في الجملة من غير استفصال - هم مسلمون باتفاق، ثم كل مسلم هو من أهل السنة اعتبارا بالأصل؛ حيث إن السنة هي صفاء ونقاء الإسلام قبل تحريفه والعبث به، فمن أسلم أو نشأ على الإسلام، فهو نازل بساحته النقية الصافية قدرا وشرعا، فلا يخرج عنها إلا بشيء ظاهر بين، كالانتساب الصريح إلى ما يضاده كالتشيع، والباطنية، والقاديانية، أو أن يأتي بما يناقضه عن علم وبصيرة، فكما أن الإسلام لا يزول عن المسلم إلا بيقين، فكذلك سنيته لا تزول إلا بيقين، واليقين يكون في إقامة الحجة؛ بإثبات الشروط وانتفاء الموانع، أما قبل فهو لا يزال على السنة، ولو ركب بدعًا عن جهل، كمن ركب كفرًا.

ففعلهم لبدع الذكر، والرقص، والسماع، والموالد، والأعمال البدعية والشركية عند القبور، لا يخرجهم من "السنة" لمانع الجهل، ولأنهم لا يدركون كثيرًا من القضايا الفلسفية ولا الكلامية، إلا أن تقوم عليهم حجة صحيحة، ولم يحدث ذلك حتىٰ الآن؛ لكثرتهم وقلة المعلمين، واختلاف اللسان وكثرة العجمة، فباب العذر لهم أوسع، وهم إلىٰ التعلم أحوج.

فلم يبق من هؤلاء الصوفية علىٰ حال من المؤاخذة إلا الفلاسفة والأشعرية منهم، وهؤلاء إن عددتهم فهم شرذمة قليلون؛ طائفة من المشايخ المنظرين والمتعصبين، فبذلك يصدق القول: إن سواد الأمة هم "سنّة"؛ لأن الأصل في أهل الإسلام أنهم علىٰ السنة واتباع السلف، ولا يخرج أحدهم عن هذا الوصف إلا بيقين من إقامة الحجة، لو ما وقع في مخالفة للسنة والسلف، والحال أن الحجة ما قامت علىٰ جلِّ هؤلاء في بدعهم؛ لتقصير أهل العلم"[1].

(١) من السني؟ ص٤١-٤٤.

فهرس الـموضوعات

الـمحتويات **الصفحة**

التمهيـد..... ٥
أولاً: النسبة..... ٧
ثانيا: الـمورد..... ١٣
مورد التصوف:..... ١٣
المورد الهندي: ١٣
المورد الفارسي: ١٦
الـمورد اليوناني: ١٩
ثالثا: النشأة ٢٧
تاريخ النشأة:..... ٢٧
موضع النشأة:..... ٣٠
سبب النشأة والانتشار: ٣٤
عن الانتشار: ٣٩
تطور التصوف: ٤٢
رابعـاً: الـمصطلحات والـمصنفات والشخصيات..... ٥٥
الـمصطلحات..... ٥٥
الـمصنفات..... ٦١
الشخصيـات..... ٦٥

خامسًا: الحقيقة ٧١
الـمــاهية..... ٧١
الـمصـدر ٧٨
الـمنهـج ٨٧
الـمعتقد..... ٩٢
سادسا: السلوك..... ١٠١
الأول: الزهد..... ١٠٣
ثانيًا: الشيـخ..... ١٠٧
ثالثـا: الإخـلاص ١١٠
رابعا: التشبه بالإله..... ١١٢
سابعا: الهدف..... ١٢٥
ثامنا: الطرق ١٣٩
أهم الطـرق الصوفية ١٤٦
(القادرية)..... ١٤٦
(الرفاعية) ١٥٢
(الشاذلية)..... ١٥٥
تاسعـا: الـمعاصر..... ١٦٣
عاشرا: الـموقف..... ١٧٥
فهرس الموضوعات ١٨٥